BASIM FURAT

الجائزة الأولى لأدب الرحلات 2015

الحلم البوليفاري

رحلة كولومبيا الكبرى

باسم فرات



الحُلمُ البوليفاري ...

رحلة كولومبيا الكبرى

الجائزة الأولى، مسابقة ناجي جواد الساعاتي لأدب الرحلات 2015

باسم فـــــرات

باسم فرات: الحلم البوليفاري... رحلة كولومبيا الكبرى

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقي 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 3761 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

www.alhadara.com

تصميم الغلاف: الفنان صدام الجُمَيلي

الطبعة الأولى: يونيو 2015

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية /2015

I.S.B.N. 978-977-476-

حين ودّعتُ الطفولةَ
حالمًا بالسفرِ والترحالِ،
لم أجرؤ على البوح لأحد

المقدمة

تَمتازُ مُدنُ أَمرِيكَا الجنوبيةِ، ومَناطِقُها، بتسمياتٍ رسميةٍ هي أسبانية في مُعظمِ الأحوال، بل ومسيحية كاثوليكية، هذه التسميات التي حَذَفتْ التسميةُ الأصل لتُثبّتَ حضورها الذي لا يمكن أن يُهَيمنَ إلاّ بِطَردِ كُلِّ ما هو أصلي، والإيحاءُ بأن لا حُضُورَ إلاّ حُضُورُ القادِمِ الجديدِ، مع استغلَالِ الشِّفَاهِيةِ التي كانت عليها حضاراتُ أمريكا الجنوبية، لِتَدوينِ سَرِدِيةٍ مُؤَدلجةٍ بِحَسبِما يرُيدُهَا واضِعُوهَا وهم الأسبَانُ، وسرقةُ أو إتلافُ ما هو مُدَوّن عندَ الشعوبِ.

كنتُ أتساءَل: ما سببُ هذا القربِ من العربِ هُنا، وأنا أرى تأثيرَ الحضَارةِ العَربيةِ عمارةً وسلوكًا وتقاليدَ في البلدانِ الثلاثةِ التي تَعرفتُ عليها عن كثبٍ، حتى قرأتُ أن ثلاثةَ ملايين عربي هَرَبُوا من إسبانيا إلى أمريكا الجنوبية، لكن لم يبقَ أَحَدٌ من سَلِيلِي هذه الملايين الثلاثةِ يتذكر أسلافَهُ، أو يَعِي حقِيقتَهُم، فهنا نادرًا ما تَلتَقِي بِشَخصٍ يُخبِرُكَ عن جذوره لبضعةَ عشرَ جيلاً إن لم يكُن لبضعةِ أجيالٍ، لكن ذوبان الملايين الثلاثةِ من العرب في مجتمعاتِ أمريكا الجنوبية، أَبَى إلاّ أن يتَرُكَ أثرًا في كلِّ شيءٍ، عمارةً وسلوكًا وتقاليدَ ومشاعر عاطفيةً جياشةً، وحبًّا للمُوسِيقَى والغناءِ والرَقْصِ كما هو حَالهُم في ماضِيهِم الذهبي في الأندلس.

أدبُ الرحلاتِ، لا يُمكِنهُ أن يتخلصَ من المرجعياتِ الثقافيةِ للكاتب، فللقرَاءَاتِ سُلْطَتُها على النص، وهي خَلفِياتٌ تُحرِّكُ اللَاوَعي عندَ

الكاتب. إن القارئَ النهمَ للمُنجَزِ الإبداعِي لأدباءِ أمريكا اللاتينية، حينَ يزُورُ أو يَسْكُنُ إحدَى دُوَلِ أمريكا اللاتينية، ويُقَررُ الكتابةَ عن ذلك البلدِ، فلا بُدّ أن تَظهَرَ بِطُرقٍ مُختلِفَةٍ، عوالمُ الروايةِ اللاتينية، عوالم الواقعية السحرية، والإشارة لأجواءِ مئةِ عامٍ من العزلة.

لكن ما حَدَثَ معي أنا الذي تمَلَّكَنِي هاجِسَ البحثِ والتَنقِيبِ بتاريخِ ثَقَافَتِي وبِيئَتِي الأولى، أن قِرَاءَاتِي هذه كَانَتْ تَأْبَى إلاّ أن تُشَارِكَ الجُمَلَ والفقراتِ التي أُدَوّنُها نتِيجةَ مُشَاهَدَاتِي وتِرحَالي و"مغامراتي" إن حقَّ لي اعتبار ما قمتُ به مغامراتٍ، على الرغمِ من تَعرُضِي مرارًا للخطر، بل إن الموتَ اقتَرَبَ مني عِدّةَ مراتٍ.

كان التاريخُ حاضرًا، ومُحَاوَلةُ إيجادُ التشابُهِ والتقاربِ بيننا وبين الأممِ التي أمضيتُ سَنَواتٍ في كَنَفِها بارِزَةٍ في كِتَابَاتِي، إذ التَّنوّعُ ميزةُ الثقافاتِ قاطبةً، ومثلما الثقافاتُ تَخلُو من النقاءِ كذلك اللغاتُ والأعراق. لم ألتفت يومًا في قراءاتي وسلوكي وتِرحَالي وكتاباتِي لآخرين، ولم أنصَتْ إلاّ لِهَواجِسِي ولم أدوّنْ إلاّ ما يَختَلجُ في عَقلِي وحُنْجُرَتي، ولم تَشُدْني كُتُبُ "الصرعات"، لاسيما كتبُ الإبداعِ، فمازِلتُ أَهِيمُ بحفرياتِ التاريخِ والإناسَةِ (الأنثروبولوجي) وهذه قَادَتني لما غيرَ متوقَّعٍ ولمستُ المسكوتَ عنه في ثقافَتِنَا.

أعني بِكُتبِ الصرعاتِ، تلك الكتبُ من رواياتٍ ومجموعاتٍ قصَصِيةٍ وشعريةٍ ونقديةٍ، تَتضِحُ فجأةً وتصبحُ حديثَ الشارعِ الثقافي، ومعها تُولَدُ شائعةٌ "كيف لم تقرأ هذا الكتاب؟ "تُرمَى عليك إن صحَ القولُ مثل "وصمة عار" ولكن لا أحدَ إلاّ النادرُ مَن يلتَفِتُ لأَمرِينِ الأولُ هو حريةُ

القراءةِ وضرورةِ وضعِ برنامجٍ خاصٍ لها لتفادي عَدمَ التركيزِ، إذ إن المنهجيةَ تقودُ لِقِرَاءَاتٍ مُعمَقَةٍ وموسوعيةٍ ذاتِ فائدةٍ كبيرةٍ، أما الأمر الثاني فهو ليس "عارًا"عدم قِرَاءَةِ كُتُبِ الصَّرعَاتِ بل من المحُزنِ أن قُرّاءَ الصرعاتِ، لا يلتَفِتُونَ لكتبٍ مهمةٍ يحتَاجُها الكاتبُ أكثر كُلَّما نضَجَتْ أَدَوَاتُهُ الكتَابِية، وما التخبطُ الثقافي في إشكالِيةِ الهويةِ التي تُعَاني منها المنطقةُ إلاّ نتيجةٌ طبيعيةٌ للّهَاثِ خَلفَ كُتُبِ الصرعاتِ عِندَ شريحةٍ هي المسِيطِرةُ أكثر على الشارعِ، وأعني شريحةَ الأدباءِ الذينَ يُشَكِلون النسبةَ الأكبرِ من الصُحفُيين في وسائِلِ الإعلامِ.

أدبُ الرحلاتِ ليس تَسْجيلاً دقيقًا لِما نُشَاهِدُهُ، بل هو تَعْبِيرٌ عن ثَقَافَتِنا ووعِينا بالمكانِ وبالآخر، فيه تَشْتَغِلُ حواسنا التي كُلَّما كانتْ مُدَرّبةً بِشكلٍ جيدٍ، جَعَلتْنا نُدَوّن ما لا يمكنُ للآخرين تَدوِينَهُ؛ فنحنُ نُدَوّنُ بِذَاكرَاتٍ مُتَشابِكةٍ، ما يَمنَحُها خُصُوصِيتَها وتَفَرُّدَها هو قِرَاءَاتُنا التي عَمِلتْ على صَقلِ وعِينَا وإحساسِنا بالمحيط، ومن هُنا فَقَارِئُ الرواياتِ سوف يَلتَفِتُ إلى التفاصيلِ ويسْردُها، لكنَّ قارئَ الفلسفةِ يُفلسِفُها مع طرحِ أسئلةٍ (تساؤلات)، أما المهتَمُ بالتاريخِ وعِلمِ الإناسةِ فهو يُكثِرُ من التَدقِيقِ في سِلُوكياتِ المجتمعِ الذي يَزُورَهُ، وفي ثقافتِهِ، ولو كانَ ممن أُبتُليَ بِعقدِ المقارَنَاتِ بين الثقافاتِ مثلِي، فسوف يَفعلُ بغيةَ البحثِ عما هو مُشتركٌ إنسانيّ، فأُولَى خطواتِ السلامِ تَبدَأ بعد الاعترافِ باختلافِ الآخر، هو البحثُ عن المشتركات لزيادة أواصرِ الروابِطِ الإنسانيةِ وأهمُها المحبةُ.

مِن هنا سيَجدُ القَارئُ أن المقارناتِ التي طالما عقَدتُها وأنا أكْتُبُ عن الأَمْكِنةِ والمجتمعاتِ، إيمانًا مني بما ذكَرتُ أعلاه، مع رغبةٍ في نقلِ الجيدِ من تَجَارِبِ هذه الأممَ، فعلى سبيلِ المثال أَرَى أن ثقافةَ المتاحفِ يجبُ أن تسودَ مجتمعاتِنا وأننا سوف نَجْني الكثيرَ من نشرِ هذه الثقافةِ، فكلُّ مَحَلّةٍ وحَارة وحيٍّ في بلدَانِنا لها خصوصيةٌ نتيجةَ تاريخِنا العريقِ، مما يُصبحُ معهُ إنشَاءُ متحفٍ ضرورةً، تتساوَى وإنشاءَ مكتبةٍ في كل حيّ ومدرسةٍ، وإنشاءَ متنزَهٍ كذلك، ثلاثةٌ كلما زرتُ مدينةً تمنيتُ أن تتحققَ في بلدي العراق وفي بقيةِ بلدان المنطقةِ العربية؛ أعني المتحفَ والمكتبةَ والمتنزَّه.

عَبْرَ التنقّلِ بين البلدان والثقافاتِ، ترسّخَ عندي أن مُصطَلحَ السُّكّانُ الأصليين يُطلَقُ على كل فئةٍ تَعِيشُ في مكانٍ ما أكثرَ من ألفِ سنةٍ، وحين انتَقَلتُ إلى الأكوادور، لاحظتُ أن الحديثَ عن الإنكا يَتمُ بصفتهم جزءٌ أصيلٌ من البلادِ، على الرغمِ من أنهم غزوا الأكوادور قبلَ الغزو الإسباني بأقلِ من نصفِ قرن، وحين استَفسَرتُ كانَ الجوابُ أنهم لم يقطعُوا بِحارًا ومحيطاتٍ، والثقافةُ متقاربةٌ للغاية. لو قارَنّا بينهم وبين العربِ، لوجَدْنا أن الإشاراتِ على وجودِ العربِ في منطقة الهلالِ الخصيب (العراق وبلاد الشام) قد سبقتْ الميلادَ بحوالي ألف سنة وليس الحرب العالمية الأولى، وأن هويةَ المنطقةِ وتُراثَها الأضخم عربيّ ومع ذلك ثَمةَ فئة أو ربما فئات تَتَحَدَّثُ عن غَزوٍ عربي جَلبَ الدمارَ للمنطقة وكأنها كانت تنَعَم بالمدنية والسلامِ والأمانِ والاستقرارِ؛ ومن المفارقاتِ أن شَخصًا لو خرجَ من مكة وآخرَ خَرَجَ من كوزكو عاصمة إمبراطورية الإنكا، فإنّ

وصولَ الأولِ إلى أعالي دجلة والفرات أو البحر المتوسط سوف يكون أسرعَ بكثيرٍ من وصولِ الأخيرِ إلى كيتو عاصمة الأكوادور، ولكن الشائعاتِ أقوى من الحَقَائقِ والمنطِقِ.

الكتابُ يُركّزُ على الأكوادور مع إشاراتٍ وحديثٍ (شذرات.. مقتطفات) عن كولومبيا والبيرو وهذه الدول تُشَكِلُ كولومبيا الكبرى التي قامَ الزعيمُ اللاتيني سيمون بوليفار بِتَوحِيدِها؛ وترَكَ بصمتَهُ فيها زعيماً ومحرراً ودكتاتوراً، والسلطةُ مفسدَةٌ للثائرِ وللشاعرِ. الثائرُ يتحَوّلُ إلى دكتاتور والشاعرُ إلى سياسي فاشلٍ وخائنٍ للشعرِ، والحُلمُ البوليفاريّ هو حلمُ هذا الزعيمُ في توحيدِ أمريكا اللاتينية. إنني أتَذَكرُ خِطَابُ الرئيس الأكوادوري روفائيل كوريّه الأول بعد فوزِهِ بالانتخابات للمرةِ الثانية في شارعِ شيريز، وكنتُ حَاضِرًا، كانتْ الجملةُ التي خَتَمَ بها خِطَابَهُ أمامَ الجماهير المحتشدةِ "تعيش وحدة أمريكا اللاتينية"وردّدَتْ الجماهيرُ "تعيش، تعيش، تعيش"وكأنَ المشهدَ في بغداد القوميين العرب أو قاهرة جمال عبد الناصر.

يُؤَدي المكانُ الأولُ دورًا كبيرًا في ذاكرةِ الكاتبِ، وبما أنني مصابٌ بداءِ الحنينِ، بِعَدِّهِ وفاءً للأمكنةِ والناسِ، وليس ذلك الحنينَ السلبي الذي يجعلُ المكانَ الأول فردوسًا ضائعًا... فإنني وجدت نفسي هنا أعُودُ في كِتَابَاتِي عن الأمكنَةِ الجديدةِ للمكانِ الأول بشكلٍ كبيرٍ، معتزًا حينًا ومتحسّرًا في أحايين كثيرةٍ لأسبابٍ عديدةٍ يبقى أهمُّها ما ذَكَرْتُهُ أعلاه. فأدبُ الرحلاتِ أدبٌ مكانيّ بِلا شَكّ، والكتابةُ عن المكان تُغرِي بالمقارنةِ بين مكانين أو أكثر، وهو ما دأَبْتُ عليه في كتابَاتِي، فالتَنَقّلُ

بين العراقِ والأردن وزي الجديدة (نيوزلندا) واليابان ولاوس والأكوادور ثُمَ الآن السودان، هذا التنقّل يجعلُ المقارنةَ في التشابه والاختلافات بين الأمكنةِ ومجتمعاتِها مثيرًا للكاتبِ ومبينًا ثراءَ التنوعِ الذي تحفل البشرية به، لا سِيما والكتابةُ غيرُ معنيةٍ بالتفضيلِ مطلقًا، إذ إن مُعَايَشةَ هذه الثقافاتِ علمَتْني أنها جميعًا تقفُ على مستوى واحدٍ من الاحترامِ والاعتزازِ.

أخيرًا

أَرْجُو أن يَجِدَ القارِئُ في هذا الكتابِ، إضافةً حقيقيةً لما دَوَّنتُهُ في كتابِي الأول (مسافر مقيمٌ .. عامان في أعماق الأكوادور) ومِثلمَا حَرِصتُ على أن تَكُون الكتَابةُ متدفقةً في آنِيتِها لمِا تُشَكِله من صدقٍ كبيرٍ، حَرِصتُ على المراجعةِ الشَّامِلةُ التي لا تَضُرَ بروحِ النصِ الأولى، ففي المناطق التي زُرتهُا وكَتَبتُ عنها كان توفرُ الحاسوبِ ببرنامجٍ عربي، ليس سهلاً والأكثرُ صعوبةٌ هو الوقتُ، فمعظمُ المناطقِ التي حَصَلتُ فيها على الحاسوبِ ببرنامجٍ عربيّ، كان ضِيقُ الوقتِ هو الفيصلُ في الأمرِ، مما جَعَلَني أَكْتُبُ بِسُرعةٍ كبيرة، وخشيةَ أن تضيعَ الموادُ قُمْتُ بالكتابةِ المباشرةِ على متُصَفَّحِي في موقعِ التواصلِ الاجتماعِي، وهذه الطريقةُ كانتْ مغريةً للغايةِ وبِفضْلِها دَونتُ الكثيرَ، بل يُمكِن القولُ إن مُعظَمَ فصولِ الكتابين (مسافر مقيم ..) وهذا الذي بين يدي القارئ (الحلم البوليفاريّ) تَم تَدوينَهُ بالطريقةِ أعلاه، مُتَأَمّلاً أن يلمسَ القارئُ حرارةَ الكتابةِ ودفقِها.

متاهة الأمازون..

جرّبت التيه في جبال وفي غابات وأحراش، في مناطق عديدة وبيئات مختلفة من العالم، لكن يبقى التيه في غابات الأمازون التي هي رئة العالم، أكثر ما عشتُ من رُعب. فإذا كنت بصعودي وتسلقي لجبال غواغوا بيتشينتشا قد تذوقت طعم الاقتراب من الموت، والوصول إلى قناعة أنني ميت لا محالة، ولكي أبقى حيًّا، يجب ألاّ أسمح لنفسي بالاستسلام للنوم لأني لن أعود للحياة. فساعدتني غريزة التشبث بالحياة. لكن الذهاب إلى محمية ياسوني التي تعد إحدى أغنى المناطق في العالم من حيث التنوع البيئي، يعني التعرض لأنواع لا حصر لها من الحشرات التي بعضها يحمل السم الزعاف، وأنواع من النمل قرصتها لا تختلف عن لدغة عقرب، بل إن بعض الأشجار التي تدافع عن نفسها حين الاقتراب منها، ترشقك بسمّ تتفاوَتُ درجاتُ قوَّته، ناهيك عن الحيوانات المفترسة والزواحف الكثيرة.

حين ركنَ الدليلُ القاربَ في نهر فرعي من نهر فرعي آخر هو نهر ياسوني والذي يصب في نهر كبير هو نابو الذي يصب بدوره في نهر الأمازون.

ترجلنا وتناولنا بعض الطعام لنواصل المسير في الغابات، توقفنا أمام شجرة سقطت ونخرتها أنواع عديدة من الحشرات، شجرة عملاقة حين حاولنا عبورها كأننا نتسلق صخرة عملاقة وليست شجرة، تأملتها وأنا أتخيّل ردة فعل مَن سأخبره عنها، فَمَن سيصدّق أن شجرة هي حيّ سكني من الحشرات مختلفة الأعراق وربما الأديان والمذاهب، حين

تقف أمامها لا ترى الجانب الآخر، وهل ثمة فراغ خلفها أم لا. ولما وقفت على أعلى نقطة فيها شعرتُ كيف للعظمة أن تهوي بفعل ماء أو هواء (رياح) أو حشرة بالكاد تُرى بالعين المجردة. تذكرتُ الرحالة أحمد بن فضلان، وقضيت دقائق أتأملها وأتفحصها وكأنني مختص، والحقيقة أنني طفل الدهشة المدلل، تدهشني الحياة بكل تفاصيلها، حتى البنايات والأماكن التي طالما مرَرت بها وقضيت وقتًا فيها حين أراها مرة ثانية أو عاشرة كأنني أراها للمرة الأولى. ولولا تحذير الدليل لبقيت متأملاً عوالم من الحشرات لا حصر لها، لكن هذه الشجرة العملاقة هي خير مكان للأفاعي ولزواحف منها اللادغ والقارص والعاض والعاصر، حيث يتم عصر الفريسة، ومنها النافخ حيث يؤدي النفخ إلى تخدير الفريسة.

واصلنا المسير وسط عشرات الآلاف من الأشجار والشجيرات والنباتات والحشرات والطيور، والمكان لا يخلو من الحيوانات المفترسة، والزواحف السامة، وكان الدليل بسكينه الطويل الذي يُشبه تلك الآلة الحادة التي ندعوها في العراق (القامة) حيث تستخدم للتطبير في العاشر من المحرم. كان يقطع الأغصان وبكثرة، فانزعجتُ من فعلته، شعرتُ به– أو أوحى لي عمله هذا– أنه عدوّ للطبيعة، فلم أتمالك نفسي وسألت مَنْ كان معي بكل لطف: "لماذا يفعل دليلنا هذا بالأغصان؟" فجاءت الإجابة أنه يقوم بوضع إشارات للمكان لكي لا نتيه في هذه الغابات بأشجارها العملاقة. إذًا أسأتُ الظن به، فهو يحذر المتاهة التي يجب الحذر منها بكل بصيرة، واصلنا توغلنا، تذكرتُ كتاب فاضل العزاوي "بعيدًا داخل الغابة" هذا الكتاب الذي جلبه لي مع مجموعة من

الكتب زميل في العمل حين كنتُ أعمل في الأهلية أبيلا في عمان سنة 1996، فحين عرف شغفي بالقراءة وأني حسب قوله "شاعر" وهي كلمة أرتجف حين أقولها، أخبرني أن شقيقه يعمل في الرقابة الأردنية ولديهم في البيت الكثير من الكتب، كانت كمية مغرية، حين عدت بها ليلاً والتقيت بصديق (تقطعت بنا السبل الآن) قبل وصولي للبيت استعارها مني ولم أرها، وكان كتاب فاضل العزاوي "بعيدًا داخل الغابة" أكثر كتاب حزنت عليه، ذكرى الكتاب بقيت ملازمة لي وأنا أتوغل في هذه المتاهة التي يطلقون عليها محمية ياسوني، بينما الغابة والفصول وغيره من الكتب التي تحوي عناوينها مفردة الغابة أو الشجر، لم تخطر ببالي ربما لأني قرأتها، بينما هذا الكتاب لم أقرأ منه سوى صفحات أثناء العمل.

كان توغلنا صعودًا وهبوطًا، والغابات تختلف وتتباين بين كل مسافة معينة، منها رطبة لدرجة أنها أقرب للمستنقع، ومنها عكس ذلك، ومنها بين بين، مناطق كثيفة لدرجة أننا نجد صعوبة بالغة في المسير؛ مما يجعل دليلنا يكثر من استخدام سِكّينه، ليس من أطراف الأغصان بل من أعماقها، ونكاد لا نرى أكثر من متر من كل جهة، مما يجعل عدم الابتعاد عن الدليل لا مناص منه، وإلا التيه، وربما التعرض لحشرات أو حيوانات مفترسة أو زواحف مما تعجّ بها بيئة الأمازون. رأينا أنواعًا لا حصر لها من الحشرات، وثلاثة وأربعين نوعًا من النمل، مختلفة الألوان والأحجام، بعضها قرصته كأنها لدغة عقرب بقوة وجعها ولن يخفّ الوجع إلاّ بعد ثماني ساعات. بعض الحشرات شكلها ولونها مُغريان؛ مما كان يجبرني على التوقف ولو لبرهة مع الحذر، فأنادي على المرشد ليس

للتوقف لكي لا تلفني متاهة الأمازون التي طالما سمعت وقرأت وشاهدت عنها فقط، وإنما ليشبع فضولي بالحديث عن هذه العوالم الساحرة والمدهشة لتلميذ معرفة مثلي.

العودة-المتاهة

بعد توغّل لساعات في غابات صرتُ أميّز اختلافاتها نتيجة تراكم الخبرات والحرص على استنفار حواسي جميعها، فليست الحواس هي الخمس المعروفة فقط، بل إنني أتحول إلى كتلة حواس حيث الطبيعة تحثني على ذلك، وغزارة تنوعها يجعل استنفارنا التام لا مناص منه، ثم الإكثار من الأسئلة للمرشدين بل ولمن معي حين يصمت المرشد أو حين نترك الغابات، فحتمًا ثمة أشياء لفتت انتباه مَن معي أكثر مني، ومشاهدات حظيتُ بإطالة النظر إليها والتمعن فيها. وفي محمية ياسوني كما في محميات وغابات كثيرة يمكن ملاحظة التغيّرات في طبيعة الغابة، حيث بروز نوع أو عدة أنواع من الأشجار في مساحة ربما لا تزيد على بضعة آلاف متر مربع، لتبرز مجموعة أخرى كلما تقدمنا، وفي بعضها تحجب الأشجار الشمس عنّا، والمطر يهبط متأخرًا بعد أن يملأ الأشجار العالية الكثيفة. مازلت أتذكر كيف أن دليلنا قام بعمل مظلة من أغصان أشجار ميزتها كبر حجم الورقة، ما إن سمع صوت المطر بعيدًا، وكأنه يعلم وبدقة متناهية متى تصل قطرات المطر إلينا.

بينما نجتاز إحدى الممرات، مررنا بطريق نمل من الحجم الكبير، قفزنا لكي لا نصيب النمل فيغضب ويصيبنا، ولكني انتبهت لنملة علقت في

حذائي، ناديت دليلنا، فأمرني أن لا أتحرك، جاء مسرعًا وبينما أبدي له استغرابي من كيفية تعلّق نملة في حذائي، قام بوضع سكينه الطويل بجانبها بطريقة تدلّ على براعة وخبرة عاليتين، فتسلق النملةَ سكينُه، ليقوم بوضعها على الأرض، وهو يردد أن النمل– كما الحشرات– يتشبّث بك مهما حاولت التملّصَ منه، وأردف: إنك محظوظ حيث انتبهت سريعًا، وإلا لوقع ما لا يحمد عقباه. سرنا بطرق ملتوية تحتمها طبيعة الغابات في ياسوني، توقفنا عند شجرة عملاقة، هل أقول هي الأضخم التي شاهدتها في حياتي؟. شجرة الالتفاف حولها تطَلّبَ وقتًا ليس لحجمها المهول فقط وإنما لجدرانها إذا جاز التعبير، ويمتاز خشبها حين الطرق عليه بالأصابع، برنّةٍ مكتومةٍ، لا تختلف عن رنّة الجدار الصلد، وارتفاعها يزيد على ستين مترًا.

لم تنفع كل علامات الدليل، كنا نخوض في متاهة وليس في طريق عودة، نصل إلى طرق مغلقة، فإما نهر وإما جدول وإما نباتات متشابكة ذات إبر، لا يمكن المرور منها، وإما تلّ عليه جيوش من النمل، مَن رآى تلاً مغطى بالنمل؟، كم ندمتُ لأني لم ألتقط له صورة، لكن الوضع الذي كنا فيه لا يسمح، فلقد تأخرنا وإذا هطل الليل صرنا في خبر كان، تملّكني القلق أولاً ثم الخوف، وصار خوفي يزداد كلما أخطأنا طريقنا. المغامرات ممتعة ولكنها خطرة أحيانًا، والخوف غريزة إنسانية لا يمكن نكرانها، ومن حسن الحظ أن مساعد الدليل– وهو القواربي أو المُجَذِّف– حين تأخرنا عليه كثيرًا جاء ليتفقدنا، ومن خلال الهتاف عرفنا مكانه، وكان قد توَغّل

عميقًا ولكنه عرف كيف يقودنا إلى القارب لنعود، وقد تأكّدَ لي أن انحراف مسير القدم بضع سنتيمترات يمكن أن يؤدي إلى المتاهة.

الأميرة كويلاغو * تفتح لي أهرامات كوتشاسقي

لم أعد أتذكر شيئًا، كانت رحلة عجيبة لا أدري مَن حملني إليها، هَوَسي أم جنوني أم تلك الأفكار الغريبة التي تسكنني. أحيانًا أظنني مجنونًا، وأحيانًا شخصًا نفض عن نفسه غبار التاريخ وخرج للناس كما ينفض شاعر ذرات الغبار القليلة والتي لا تُرى بالعين المجردة التي رماه بها شويعر أو موهوم. لم يكن النفض إلاّ لأن الشاعرَ يؤمن بأنه يجب أن يكون بكامل أناقته أمام القصيدة. يضع حريته فوق كل اعتبار، وسنواته قربانًا للشعر.

هذا ما حدث حين زرتُ كوتشاسقي، استقبلتني الأميرة كويلاغو، خلفها سربٌ من الصبايا يحملن شَعرها، كان طويلاً أطول من معلقة امرئ القيس، ورغم نعومته الواضحة وحلكة سواده ثمة نور وجموح يتوزعانه كما لو كنتُ أقرأ طَرَفَة بن العبد في جموحه؛ والذي أسرني شعره كما حياته. قالت: "أنت قرب الماء إذًا" كانت فرصة لأسألها كيف عرفوا في ذلك الوقت المبَكّر أن هذه الأرض هي منطقة الإستواء؟ تبسمت لتهمس في أذني: "أجمل ما في التاريخ غموضه، فلا تنبش تاريخنا كما فعلتَ مع تاريخ بلادك فأسلمك النبش للقلق وسوء فهم الآخرين"، أشارت بحاجبها فقدموا لنا روح الصَّبار الأمريكي الشهير بالأغاف.

ثم جاءت فرقة موسيقية، بدأ العزف والغناء، وكانت كلماتُ الأغنية تخبر عن كوتشاسقي ومعناها "قرب الماء" وأن الثلاثة آلاف ومائة متر- ارتفاعها عن مستوى البحر- لم يمنع الكيتو كاراسيين؛ وهم سُكّانها؛ من التبحر في علوم الفلك ومعرفة الفصول والأنواء والدراية بالطبيعة، وأن يمتدّ هذا المجتمع من ساحل المحيط الهادي غربًا وحتى الأمازون شرقًا ومن شمال محافظة بِتشينتشا وحتى جنوب كولومبيا، وهي مساحة كبيرة بلا شكّ، تمكنوا من إيجاد تقويمين شمسي وقمري، وتركوا خريطة توضح هذا بما يجعلهم مجتمعًا متطورًا. وكانت صناعته جيدة وكشفت لنا الآثار عن معرفة طيبة بمعدن الفضة واستخداماته.

قادتني الأميرة كويلاغو في جولة حول المنطقة، أرتني 15 هرمًا و21 قبرًا هو مجموع ما في المنطقة، عمر هذه الأهرامات حسب قولها 1500 سنة. صُنعت من الطين والرماد وأحيانًا فضلات الحيوانات كاللاما (وتلفظ الياما والجاما) ونباتات جافة مع الدم. القطعة الواحدة ويُطلق عليها "اللَّبِن" وهي كلمة عربية فصيحة لأنها اللبنة الأساسية في البناء. واللّبن أي الطين المجفف قياس واحدته 70 في 60 سنتيمترًا ووزنها 60 باوندًا. بعض الأهرامات تحوي سلالم أو مُدَرّجة وأخرى لا تحوي. وأحدها له شكل العقرب، ومن استخداماتها الصلاة وأخرى في الاعتدالين الربيعي والخريفي، وفيها وجدوا 556 جمجمة. وطريقة الدفن كما في مناطق أخرى شاهدتها في الأكوادور وهي وضع الجثة بطريقة القرفصاء.

مدرجات الأهرامات– ونتيجة تحالف الزمن مع الطبيعة غطاها الغبار وبسبب الأمطار الغزيرة التي تهطل سنويًّا– لا نرى سوى تلال خضر على شكل حرف تي اللاتيني، وبعضها تكون القاعدة طويلة للغاية. "هذه الأهرامات لا تثيرك كما أهرامات الجيزة في مصر" قالت لي الأميرة كويلاغو، تبسمتُ محاولاً أن لا أجرحها في مملكتها، موضحًا أن لكل مجتمع ثقافته وميزته وخصوصيته، وإذا كانت رؤية أهرامات مصر تجعل زائر كوتشاسقي يميل لمعجزة مصر ويزداد إعجابًا بها محاولاً الاتكاء على أي روابط تربطه بهذا البلد العظيم، كالقومية والدين والجيرة، فلا بدّ من الثناء على الكيتو كاراسيين سُكّان كوتشاسقي؛ لاستدلالهم المُبَكّر بموقع منطقتهم وبالتالي موقعهم من العالم، هذه معجزة بحدّ ذاتها. حيث تقع المنطقة شمال خط الإستواء بثلث درجة تقريبًا.

ونحن نتجول بين الأهرامات، أرتني الأميرة كويلاغو الْمُتَوّجة من قبل الشعب، أنموذجًا لأحد القبور، تم حفره للتأكد، وكي يكون أنموذجًا؛ قام به فريق الآثار الألماني الذي عمل مُنَقّبًا في منطقة حكمها ما بين عامي 1932– 1964 ميلادية. وفي السنة الأخيرة أكّدَ الفريق على أن المكان لم يكن مقبرة فقط بل ثمة بيوت أيضًا. وفي عام 1986 فريق آثار روسي يقول إنه من الممكن أن يكون المكان جيدًا لعلم الفلك. وأصبحت منطقة آثار بشكل رسمي عام 1988. وقالت بصوتٍ لا يخلو من الزهو: "كانت لقومي دراية بالطبيعة وتغير الفصول، ورغم مرور ألف وخمسمائة سنة على بناء هذه الأهرامات، ففي حزيران من كل عام حين يحين أطول يوم في السنة، يأتي الكثير من الناس للمكان للاحتفال،

ويحتسون نوعًا من العصير يُصنع من نبات خاص هو الصّبّار كما تطلقون عليه بعربيتكم، وللأكل والكهانة حصتهما". ثم أردفت: "إن كوتشاسقي نقطة طاقة مازالت أعداد من الشعب تؤمن بهذا فيأتون إلى هنا للاستزادة من هذه الطاقة لأجسادهم". حين ذكرتْ كلمة الشعب، قلت في نفسي: إن لغة الحكام واحدة مهما اختلفت الأمكنة والأزمنة.

مساحة التقويمين الشمسي والقمري مع ألوانهما وطريقة عملهما تثير الإعجاب حقًّا، وهذه المساحة مُغطَّاة بسقوفٍ حديدية تستند على قوائم خشبية، لحمايتها من الأمطار؛ كما هو الحال مع نماذج الأهرامات التي حفروها لتكون شاهدًا على طريقة بنائها، وأنهم لم يقوموا بحفر وإبراز جميع الأهرامات حفاظًا عليها. والناظر لهذه الأهرامات سيلاحظ– وبكل يسر– تلالاً خضراء على شكل حرف تي اللاتيني ترعى فيها الخيول واللاما أو الياما وأعدادها أضعاف الخيول. ولاشك حضر الحصان العربي في ذهني بأناقته وجماله حين النظر للخيول الأكوادورية. وتكثر الياما في البيرو، وحين تعرَّض هذا الحيوان للانقراض في الأكوادور، استوردوا أعدادًا من جمهورية البيرو وأطلقوها ترعى في العديد من الأماكن الأثرية والسياحية والمحميات لزيادة أعدادها، وهي خطوة تستحق الإشادة فعلاً، ولكن نرى الحكومة الأكوادورية تسعى لإقناع السكان المحليين في أهم محمية بيئية في العالم بالقبول والترحيب بشركات النفط، ويلعب الفساد الإداري دوره الخبيث في تدمير بيئة هي مسؤولية العالم أجمع لأن تدمير محمية ياسوني من خلال التنقيب عن النفط سوف يكون له انعكاسات سلبية على البيئة في كوكبنا كله.

في المتحف الملاصق للبوابة الرئيسية، وهو ليس كبيرًا، قاعة طولها لا يزيد على اثنيْ عشر مترًا وعرضها حوالي خمسة أمتار. رأيت الهيكل العظمي المتبقي من الجثة التي وجدوها في القبر الأنموذج، وهي في حالة القرفصاء كما أسلفت. كما رأيت فخاريات بعضها ملوّنة وذات صنع متقن، حتى كأنها صُنعتْ في يومنا هذا. وثمة مسامير صخرية، وهي ذاتها المعروضة في أرضية التقويمين الشمسي والقمري، هكذا أخبرتني الأميرة كويلاغو، ولُعبة تقليدية موجودة في منطقتنا العربية، هي لُعبة الدوامة وتُسمى في العراق "المرصع" و"المرصعة"، أثارت دهشتي ووقوفي أمامها، مسترجعًا طفولة ولعبة نادرًا ما لعبتها ولم أحسن مزاولتها كذلك عهدي مع بقية اللُّعب، لكنني كنتُ أشاهد باندهاش كيف يجيدها أقراني بل ومَن يصغرني سنًّا. كيف وصلت هذه اللُّعبة إلى هنا، هكذا سألت نفسي، لأراجعها مؤنبًا على التفكير العنصري والاقصائي، كأنما لا يمكن أن يكون العكس مثلاً، أو أن الفطرة الإنسانية جعلت الكثير من الأمور تتشابه، أخلاقيات وطرق معيشة ولهو وبراءة الطفولة وبعض الصناعات.

خاتمة المطاف، هو متحف آخر مبني من على الطراز الأكوادوي والأنديزي القديم، كانت الأميرة كويلاغو وهي تصحبني لنختم جولتنا، تُحدِّثني عن أن هذه العمارة هي ما كانت عليه قبل أكثر من ألف سنة. هو بيت دائري الشكل، مبني من الطين المخلوط بنباتات؛ كما هو الحال في العراق وعالمنا العربي، ورغم أنني مديني أبًا عن جدّ، رأيت أكواخ الفقراء الذين نزحوا من أهوار العراق وأعماق ريفه، وثمة تشابه لا

يُنكر بينها وبين أكواخ الأنديزيين والأمازونيين، سوى أن الأخيرين أكواخهم مرتفعة عن الأرض أكثر من متر؛ كما هي بيوت الجنوب آسيويين، والسبب كثرة الأمطار التي تجعل مناطق شاسعة من الأمازون وجنوب شرق آسيا مليئة بالمياه كما هي منطقة مستنقعات (أهوار) العراق.

يحوي الكوخ– المتحف نماذج مُصَنّعَة من الحياة اليومية في أزمنة مختلفة للحياة الأنديزية في الأكوادور، وهنا اختلاف عن المتحف الأول الذي يحوي فخاريات وصناعات وآثارًا عمرها 1500 سنة. بعد ذلك سجلنا أسماءنا في سجل الزائرين، وكما هي عادتي كتبتُ باللغتين التي أحيا بهما وهما العربية أغنى اللغات كما يقول الشاعر الكبير سعدي يوسف، والإنجليزية لغة حياتي البيتية واليومية. حين انتهيت من الكتابة لم أجد الأميرة كويلاغو، بحثتُ عنها وتلفتُّ بلا جدوى، انتبه الجميع لي وسألوني هل أبحث عن شيء أو شخص ما؟ أجبتهم نعم الأميرة كويلاغو والصبايا الجميلات اللواتي كُنّ يحملنَ شَعرها الأسود الطويل. استغرب الجميع وظنوني أمازحهم، حينها أدركتُ أن ابتسامة مني مع التأكيد على أني أمزح سوف تنقذني من وصمة الجنون.

* الأميرة كويلاغو: هي ملكة المنطقة ولكن المعلومات عنها ضئيلة للغاية في التاريخ الأكوادوري، وكل ما يعرف عنها أنها حاربت الأعداء وكانت بطلة في التصدي لهم للحفاظ على منطقتها، والآراء عنها متضاربة بعضها يزعم أنها تزوجت أحد ملوك الإنكا ونتج عن هذا الزواج آخر أباطرة إمبراطورية الإنكا.

لاميرسَد - السبت 29 حزيران 2013

كتبتُ مرة إن لم أذهب في رحلة ما، أقوم بالتجوال في أحياء وحارات وضواحي المدينة التي أعيش فيها، وأمس السبت التاسع والعشرون من حزيران 2013 ذهبت إلى بلدة لاميرسَد وهي تبعد 50 دقيقة بالحافلة من محطة الحافلات في جنوب كيتو، وتدخل ضمن نطاق محافظة بيتشينتشا، وكيتو مركز المحافظة وعاصمة البلاد. توقفت الحافلة في البلدة قرب المسبح، الذي هو مياه معدنية، لا يخفى جمال المكان وتصميمه، والمسبح كبيرٌ جدًّا ذكرني بالمسبح الذي كنتُ أذهب إليه في صيف هيروشيما، في ذلك المكان الواقع قريباً من حديقة السلام والقبة الخضراء أو قبة القنبلة الذرية، وهي بقايا لبناية التطوير الحضري التي بُنيت عام 1913، وبجانبه يقع ملعب هيروشيما. ترى آلاف الشباب يتجمهرون في المباريات من أجل الدخول للملعب ومشاهدة المباريات، وكنتُ أجد متعة كبيرة بتأمل هذا الشعب الذي أحببته حد الإعجاب.

البناية تابعة لبلدية لاميرسَد، وعلى الرغم من إن المكان عبارة عن متنزه مدهش، لكن وضع الحمامات في آخر المكان هو ما لم أره في أي مسبح دخلته، ولا أدري كيف فكّر مَن صممه وقام بتفيذه، بينما مسبح هيروشيما حماماته ومَنازعه (أماكن تغيير الملابس) في بداية البناية –المسبح–، ليس هذا فقط بل ثمة دواليب خاصة لكل فرد، وإن كان ثمة مَن يراقب الرواد كي يستحموا قبل النزول للماء وهو ما معمول بِهِ في جميع الأماكن لكن هذا المكان يخلو من مراقبين، وربما القائمون على

المراقبة أخذوا استراحة طويلة، وليس هذا بمستغرب في بلد يعاني من الفساد الإداري، أقول الفساد الإداري وصورة وطني العراق في البال، إذ البناء والعمران والمتنزهات والحدائق والمسابح والحمامات والمكتبات والمتاحف والمعارض في الأكوادور بنفوسها الثلاثة عشر هي عشرات المرات أكثر مما في العراق.

تحدثت كثيرًا مع الأصدقاء من العراقيين والعرب عن خبرين قرأتهما الأول في الصحافة النيوزلندية، البلد التي أحمل جنسيتها، وهو دعوة الحكومة للشعب ليس لِشَدّ الأحزمة نتيجة ضائقة مالية، ولا للتبرع بالمال وإنما لتناول خمسة أنواع من الخضروات يوميًّا؛ وأما الخبر الثاني ففي صحيفة أكوادورية تنقل عن أمين العاصمة الأكوادورية أنهم سيضعون أجهزة اللياقة البدنية في مئة متنزه. كلا الخبرين يعتنيان بصحة المواطن، الأول في واحدة من أرقى خمسة بلدان في العالم من الناحية التعليمية والبيئية والحريات الفردية ونظافة يد الموظفين فهو الأقل فسادًا في العالم بعد فلندا، والخبر الثاني في إحدى جمهوريات الموز، والتي تعاني من فساد إداري لولاه لكانت الأكوادور من أغنى دول العالم، ومع ذلك عدد الحدائق والمتنزهات والمتاحف في عاصمتها أضعاف ما في بغداد على الرغم من أن نفوس كيتو هو تقريبًا ثلث نفوس بغداد إن لم يكن ربعه وكذلك عمرها، فهي تأسست بعد بغداد بأكثر من 800 سنة.

قضيت أكثر من ثلاث ساعات، مارست السباحة التي لا أجيدها كثيرًا، ومن ثم لعبة كرة القدم المحببة إلى نفسي، مع توأم لصديقة تُدرّس اللغة الإسبانية لغير الناطقين بها. وتناولنا غداءنا هناك مع كمية من الفواكه،

وبما أن الاحتكاك بالمجتمعات تدعوك لتعلم الفوارق بين الشعوب، ففي هذا اليوم شاهدت الفرق بين تناول نوعٍ من الفواكه المنتشرة هنا، فأنا الغريب أقوم بتقشيرها وكنتُ أعاني من رقّةِ قِشر الفاكهة ولم أفكّر يومًا بتناولها بقشرها كما هو تناول التفاح والخوخ والأجاص والكمثرى وغيرها من الفواكه ذوات القشور الرقيقة التي لا تحتاج لتقشير؛ وحين ناولتني هذه السيدة الفاكهة وناولت ولديها كذلك، لاحظت أنهم بدأوا جميعًا بقضم الفاكهة بلا تقشير، وحين أخبرتهم أبدوا استغرابهم مع ابتسامات الولدين الشقيين.

بعد خروجي قمت بجولة في المكان، ثم أستأجرنا سيارة لنذهب إلى كنيسة على قمة جبلٍ، لم يكن الطريق سهلاً كله، بل في أماكن منه ثمة صعوبة تواجه السائق، ولولا أن السائقين أبناء المنطقة ذاتها لربما كانت الحوادث كثيرة، أنها خط ذهاب للكنيسة فقط، لكن هذه هي الطرق الجبلية الريفية وعرة في معظم بلدان العالم. الكنيسة كالعادة بناء مستطيل، شامخة بعزلتها العجيبة، فلا وجود لبناء قريب منها، وكأن الناس لا تأتي هنا إلاّ لمناسبات ما، مع وفرة عجيبة للطبيعة، أعني كثرة الطيور والسحالي والنباتات والحشرات التي لا تعيش إلاّ في هكذا أماكن.

كنت في المسبح أشعر بارتفاع درجات الحراة، بينما هنا البرد مبتهج بمأواه، والريح تراقص حتى الجدران وبقايا أعراس، لم تغادر حرارة القبلات المكان ولا بهجة الموسيقى احتفاء بكلمة الرب. لكن المكان كما في مناطق عديدة من أمريكا الجنوبية وليست الأكوادور فقط، هناك مناطق يظنونها مليئة بالطاقة، وهذا المكان منها، فسكان الأرض

الأصليين، يؤمنون بوجود طاقة لا يعيها إلاّ هم أهل الدار، ولأنني عشت في مناطق عديدة من العالم تؤمن بالطاقة والسحر والجن و ...إلخ، فعليّ احترام هذا الأمر الذي لا أنكر أنني أعيشه منجذبًا لأمرين يتجاذبان تفكيري، عدم التصديق لأني أرى العلم هو الحلّ الأمثل في تطور المجتمعات، وفي الوقت نقسه بعض هذه القوى والطاقة لمستها بنفسي، ناهيك عن احترامي لمشاعر الناس ومعتقداتهم مهما كانت، فهي لا غبار عليها مازالت لا تدعو للقتل والعنف عمومًا.

على الجانب الآخر جبل، سألت السائق (الذي كان دليلنا أيضًا)، كيف الوصول إلى تلك القمة، نظر لي مع ابتسامة قالت لي :–إن هذا الرجل يقول ما لك والمناطق التي لا يرتادها السائحون–، وعليه مباشرة قلت له قبل أن ينطق إنني مهووس بالهامش والمهمل، اتفقنا على أن اتصل به ونذهب للمكان في وقت آخر، وأخبرني أن أهل المنطقة يتسلقوه، أي أن استغرابه كان بصفتي غريبًا.

وأنا أعد هذا الكتاب، أود أن أضيف، بأنني لم تسنح لي الفرصة لتسلق الجبل لضيق الوقت.

القينتشه. الأحد 22 أيلول 2013

لم أقم برحلات منذ عودتي إلى الأكوادور بعد رحلة بريطانيا ومدريد. فقررت اليوم أن أتجول في شمال كيتو، أي المناطق المحاذية جدًّا لخط الإستواء، أو شماله قليلاً، وكانت وجهتي إلى بلدة القينتشه، وهذه البلدة تبعد أكثر من ثلث ساعة عن المطار وساعة ونصف عن كيتو بالحافلة،

التي انطلقت بسرعة من المرآب أو محطة الحافلات، مما جعلني أتساءل، لمَ العجلة من قبل السائق، لكن سوء ظني تبدّد على امتداد الطريق، إذ كان الركاب يصعدون أفواجًا ويترجلون أفواجًا، وإن لم أخطئ العدّ فقد تجاوز عدد الركاب المئة، فما حاجة السائق إذًا لضياع بضع دقائق في المحطة، ومَن يدري قد تُحسب عليه، فصعود الركاب للحافلة أمام أنظار رقباء المحطة، له عواقبه في عدم التستّر على "جني محصول" اليوم كما يُطلق عليه في العراق.

اليوم هو الأحد، وهذا يعني أن قدّاسًا يقام في كنيسة القينتشه الفخمة المشهورة، وميزة هذه الكنيسة التي منحت البلدة الحياة، هو صيتها بين جموع المؤمنين الكاثوليك في كيتو والبلدات والأودية المحيطة بها، باستجابة دعوات المؤمنين وقضاء حوائجهم، تساءلت مع نفسي في أثناء القدّاس، هل أنا في كربلاء، أم هو الحنين يجعلني ألوي عنق ما أرى ليكون شبيهًا بمدينتي، هل هي قراءتي أم أنها حقيقة، فالمؤمنون يقومون بحركات تشبه ما يجري في كربلاء، يتضرعون ويرفعون أيديهم للسماء سائلين مَن يعتقدون به أن يحقق لهم ما يبغون أو أن يبعد عنهم المرض والعوز والحاجة. التشبّث بشبابيك وأبواب، صلوات وقراءات، رجل الدين الذي يشبه إمام الجامع أو القارئ، يقرأ ويصلي على الماء والجميع رفعوا قناني الماء، ومن ثم على المسابح والنذور التي حملوها للكنيسة، وعلى تماثيل مريم العذراء وصورها.

كان حضور الأخيرة أكثر من حضور السيد المسيح، مما قادني إلى تذكر حضور بعض الأئمة مثل الإمام الحسين في كربلاء أكثر من حضور جده

العظيم مؤسس الإسلام أحيانًا. كان رجل الدين يصلي لهم وهم ينتشون فرحًا لأن الراهب راعي الكنيسة صلواته مستجابة عند السيدة القديسة مريم العذراء التي جعلها القرآن سيدة نساء العالمين، ولكن المسلمين أبوا إلاّ أن تكون ابنة نبيهم هي السيدة المطلقة، فأصبحت مريم العذراء سيدة نساء العالمين في حينها بينما فاطمة الزهراء لكل العصور والأزمنة بإطلاق تام. وكعادتي في الاندماج، صليتُ مع المصلين، في الوقت نفسه أراقب بدقة ما يجري، كانت كربلاء حاضرة ولكن بنسخة مسيحية كاثوليكية، وكان حضور السيدة مريم العذراء يشبه حضور السيدة زينب شقيقة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، في هذا القدّاس لم يكن للسيد المسيح من حضور يُذكر، لقد هُمّشَ لصالح أمّه.

الكنيسة معطرة بالذهب، يا لهذا الذهب الذي يُزَيّن الأماكن المقدسة، إسلامية ومسيحية وبوذية وغيرها من الأديان، ويُزَيّن جيوب وأرصدة الأثرياء وفي الوقت نفسه الذي يُزَيّن خيالات وأحلام الفقراء لكنه يبتعد عن جيوبهم، وهو يردد على مسامعهم: هيت لكم. ثمة منبر، نعم هو لا يختلف عن أي منبر يلقي إمام الجامع خطبته منه، هذا المنبر الذي يوجد في كل كنيسة هنا، يُشعرني بالتلاقح الثقافي بين الأديان والحضارات والمجتمعات، وإذا نظرت للأمر من هذا الباب، فلإيماني أننا يجب أن نعلي من مشتركاتنا كبشر، فننشر المحبة، وبدلاً من التأكيد على الخلافات، نحاول التأكيد على ما تلتقي وتتشابه فيه الأديان والمذاهب والثقافات، لنكون أهلاً لهذه الأرض ونجعل أخوّتنا الإنسانية أولاً.

على أبواب الكنيسة شحاذون، كانوا كبارًا في السنّ، سرق الزمن قوتهم وبهجتهم، وخلّفَ فيهم أمراضًا وتجاعيد، تأملت الشحاذات، قبل نصف قرن، ساحرات تمتلئ أسرّة الشباب بأطيافهن، ونظرت لفتيات يعبق سحر الأنوثة في مشيتهن، شاب فقد قدمه اليمنى، وتزاحمت الشحوم أسفل صدره، أمامه إناء لا ماء فيه ولا نقود، وعلى بضعة أمتار ينبوع يتبرك به الجميع، في الأعلى بضعة حمامات تحيط بيافطة تغري المؤمنين أن لا أمراض لمن يغتسل بهذا النبع. سيدة ضاهى أربعينها غنج الصبايا، رَشَّت على كلبها الصغير ثلاث كؤوس من النبع بينما كنت أصوّر أنوثتها وهي ترفع الأمراض عن مدللها المحظوظ. وتقود الرجالَ إلى التحسّر.

في الأماكن الدينية، ثمة سوق متنوع، هو حقل نفط يدرّ على سكان المنطقة أموالاً، فهنا كما في جميع الأماكن التي زرتها في حياتي، إسلامية ومسيحية وبوذية وشنتوية وإلخ الأديان الجميلة التي تمنح عالمنا ثراءه الثقافي، لابد من دكاكين الهدايا والباعة المتجولين، والمطاعم وعربات الأكل والفواكه والتحفيات والألعاب التي يسيل لعاب الأطفال لها، ولا يمكن أن يكتمل المشهد بدون الشحاذين وذوي الاحتياجات الخاصة ممن أصبحوا ضحية لظلم المجتمع والحكومة معًا، وفي بعضها نجد ثمة وسائط نقل أو زينة ومتعة وترفيه، مثل الخيول أو الياما وفي لفظة أخرى الجاما والذي يُطلق عليه بالإنجليزية اللّاما، إذ يمتطيه الأطفال والأهل يلتقطون الصور التذكارية، هل نختتم المشهد بالمصورين؟ ربما أن أجهزة الهواتف النقّالة الحديثة، خففت من مردود المصورين الماليّ، لكنها مازالت تُعَدّ مصدر رزق للكثيرين.

التقطت العديد من الصور كعادتي في زيارة الأماكن، وعدت للبيت فكان أول عملين قمت بهما هو تنزيل الصور في الحاسوب وتبويبها أي وضعها في ملف الصور مع التاريخ والمكان، وحذف ما لا أريده؛ وأما العمل الثاني فهو تدوين هذه الرحلة وعلى طاولتي فنجان شاي كبير، صاحبي الملاصق لي أثناء الكتابة.

أتاولبا Atahaulpa - السبت 5 تشرين الأول 2013

تبعد ساعتان عن كيتو في الحافلة، وهي جزء من محافظة بيتشينتشا، والتي مركزها العاصمة كيتو، أي أنها شمال خط الإستواء، هي بلدة مازالت تحتفظ بريفها الجميل، وإن كنت أراها للقرية أقرب. الطريق الذي سلكته الحافلة المليئة بالمسافرين وبصراخ طفلة متعتها البكاء، يدعى طريق الخفاء، أو الطريق المخفي، وكانت الجبال شبه جرداء، ونباتاتها تنتمي للغابات الجافة، لكن لتربتها روعة الألوان، إذ الورديّ (الزهريّ) والقريب للأحمر والأصفر والرمادي، لم تخل رحلة من رحلاتي في أعماق الأكوادور من نهر، لا بدّ من نهر وشلال ولكن هذه المرة رأيت النهر ولم أر شلالاً واحدًا، والملفت أننا مررنا بمحمية تدعى "القدس".

كان وصولنا بعد العاشرة صباحًا بربع ساعة، نزلنا في آخر موقف للحافلة، لتعود الحافلة إلى مركز البلدة، ونحن نتبعها، فقد قررنا أن لا نترجل من الحافلة مازالت في صعود، وكانت المفارقة أن آخر نقطة تصلها الحافلة هي آخر نقطة صعود، ليبدأ الهبوط بعدها في الاتجاهين، تبعنا الحافلة وفي الطريق الْتَقطتُ مجموعة صور لبيوت البلدة، وبعد عدة

مئات من الأمتار كانت قطعة تقول: (طريق إلى نقطة مشاهدة)، أي إلى مكان مرتفع نشاهد فيه البلدة، فسلكناه كان طريقًا ترابيًّا وعرًا وضيّقًا، وفي وسطه جاء طفلان يركضان خلفنا فتاة وفتى في العاشرة من العمر كان يركضان وكأنهما في طريق مُعَبّد مستقيم، لا في طريق ترابيّ وعر مليءٍ بالحفر وتصاعدي، حين وصلنا إلى شارع مُبَلّط، رأينهما أتى من الجهة المقابلة لنا، تساءلت يا لهذا النشاط واللياقة العالية، سألناهما كيف الوصول إلى قمة التلّ، الفتاة أخبرتنا فسلكنا الطريق، كانت مع رفيقها خلفنا، توغلنا صعودًا في طريق أكثر وعورة وضيقًا من الأول، وخطورته أن الانزلاق يعني العودة للأسفل تدحرجًا، نظرت للبلدة وهي تنخفض أمام صعودنا، التقطتُ صور عدة وواصلنا السير، تعرضت لانزلاقات مرارًا ولكن الحذر والتشبث السريع بالنباتات ساعدني.

ليست جميع الأشجار تعدّ جيدة للتشبّث بها، فبعضها يفرز مادة مخاطية وأخرى لزجة، وهي ما أصابني وأنا أستعين بغصن شجرة، لكني وأنا أتذكر نصائح أول مرشد تسلقت معه أول جبل في الأكوادور، أن تكون خطواتي قريبة من بعضها ولا أسرع، وجدتني أقترب من خط الأشجار، وفي أثناء وضع قدمي اليسرى وتثبيتها هممت برفع قدمي اليمنى لوضعها أعلى، وإذا بغصن شجرة التصق بذراعي اليسرى، لم أستطع التحرّك فناديت مستغيثًا، وبعد رفع الغصن عن ذراعي لاحظت أن الأبر الشوكية تملأ المكان مع وجود الدم، على مهل استخرجت الأبر الشوكية، وخطر ببالي أمران متناقضان الأول مشهد صلب السيد المسيح والثاني ما قرأته في كتاب شبيه صدام حسين، هل الابر الشوكية لها علاقة بما حمله

السيد المسيح، لكن ما علاقة الأمر بصدام حسين؟ المهم أنني واصلت ولم تُعرض أمامي كل ما يعكّر صفو هذه الرحلة.

وأنا أهبط من أعلى نقطة نحو مركز القرية أو البلدة، لفت نظري جرأة الألوان في دهان (صبغ) البيوت، فهذا بيت أصفر فاقع وآخر برتقالي وثالث بنفسجي ورابع أحمر وخامس لونه بين البنّيّ والأحمر، وهكذا بقية البيوت على قلتها، لكنها منحت الطريق لونًا قزحيًّا مبهجًا؛ ربما يستهجنها مَن تعودت ذائقته على نظام معيّن يشترط التناسق حسب المتعارف عليه في مجتمعه، لكن الأذواق نسبية وكذلك التناسق، ومن هنا فما يراه بعضنا مستهجنًا قد يكون على العكس عند سوانا، ومَن يعتقد أن على المدينة أو الحيّ أن تكون ألوان بيوته لا تخرج عن الأبيض والرمادي والأصفر الفاتح (البيج) والأزرق الفاتح بلون السماء، فلا يستغرب أن رآى بيوتًا مختلفة ألوانها تغرف من الطبيعة وقوس قزح، فلكل مجتمع ذائقته التي يعتقد أنها الذائقة الرفيعة التي يجب أن تُحتذى.

في طريق العودة كنت أفكّر فيما هو مشترك بين جميع الأرياف ربما في العالم. نساء ترك الدهر نوائبه على وجوههن، يفتقدن لطراوة المدينة ونعومتها وهذا واضح من بشرتهن المتغضنة، لكنهن يملك صحة وقوة بحيث يقمن بأعمال لا يمكن لنساء المدن في ذات العمر أن يؤدين أقلّ منها؛ وكم شاهدت نساء ورجالاً ربما تجاوزوا الثمانين ولكن قوتهم الجسدية توازي مَن هو في الخمسين إن لم يكن في الأربعين من أهل المدن. أما الأطفال فالطبيعة كلها ملعبًا لهم، وهو ما يجعلهم أصحّاء

أكثر، لأن تسلق الأشجار والنشاطات إن كانت لهوًا أو عملاً مع الحيوانات تمنحهم قوة جسمانية ومناعة تجنبهم الأمراض. ولا يخفى تناول الأكل الرَّيّان وأعني به الخضروات التي تقطف من الحقل ومباشرة تغسل وتوضع على مائدة الطعام.

رحلة ميساواجي (ميساوايي) - أياؤوسكا
الجمعة – الأثنين 11 - 14 تشرين الأول 2013

في مساء الخميس كنتُ في شقة صديقي الأكوادوري بابلو، وكان الحديث عن الذهاب إلى الساحل أو إلى الأمازون، فوضعت قطعة نقود ورميتها للأعلى، أربع مرات وكل مرة كانت تظهر لنا اختيار الساحل، كنتُ موزعًا بين الرغبة في زيارة الساحل لسبب وحيد، وهي منطقة نادرًا ما يؤمها السيّاح، بينما رغبتي للأمازون لا حدود لها، لأن الأمازون يملك من الثراء ما يجعلني أتعلم دائمًا. عدتُ للبيت لكي أنام فموعدنا بعد ساعات، وفي النفس شيء من الأمازون، وفي السادسة صباحًا، كنت أمام باب البيت أنتظر بابلو وزوجته لنذهب جميعًا، انطلقنا في تمام السادسة وخمس دقائق من صباح الجمعة، وبعد التحية الصباحية، أخبراني أنهما لاحظا رغبتي بزيارة الأمازون والدليل أنني أربع مرات رميت قطعة النقود، فقررا أن يلبيا رغبتي، وصلنا في تمام الثانية عشرة والنصف، أي استغرق الطريق ستّ ساعات وخمسًا وعشرين دقيقة، توقفنا خلالها مرات عديدة، للاستراحة وتبادل بابلو وزوجته سيلفانا السياقة، وعلى الرغم من مروري

بالطريق سابقًا لا سيما نصفه الأول وهو الموصل بين كيتو وباباياكتا (أرض البطاطا باللغة الكيتشوية) لكن هذه المرة وجدت اختلافًا بالطريق، فصعود الحافلات لا يمكن مقارنته بالسفر مع صديق بسيارته الخاصة إذ لا ستائر لنوافذها، والنظر في جميع الاتجاهات سهل، في حين استحالته في الحافلة، فنوافذ الحافلات غير مريحة في النظر مع تغطيتها بالستائر عند غالبية الركّاب، ووضع حاجز بين السائق والمسافرين يحرمنا من النظر للأمام.

على الرغم من حجزنا المسبق، وتأكيدنا للحجز ما أن خرجنا من كيتو، لكننا واجهنا إشكالية بسيطة حال وصولنا مع صاحبة النُزل، تم تلافيها، لاستحم وأتناول غدائي في مطعم النُّزُل ذاته، ثم أتجوّل بالبلدة الصغيرة التي يلتقي فيها نهرا تَيْنا وميساواجي فيولد من ذلك نهر نابو العظيم الذي يصبّ في نهر الأمازون أشهر أنهار العالم تقريبًا، فأنا في بلدة يولد منها نهر نابو كنتُ قد قضيتُ فيه أكثر من 25 ساعة سابقًا، فمن كوكا إلى منتجع ساني والتجول في أثناء وجودي في المنتجع ثم العودة من ساني إلى كوكا وهذا وحده استغرق مايزيد على سبع ساعات، ثم الإنهار (على وزن إبحار) من كوكا إلى محمية ياسوني على الحدود مع جمهورية البيرو، وهذه استغرقت أكثر من عشر ساعات ذهابًا وأكثر قليلاً إيابًا، وفيه رأيت كيف لعاصفة مطرية أن تتسبب بكارثة وتزرع الرعبَ في قلوب العاملين على القوارب وهي الواسطة الوحيدة للتنقل.

الجمعة 11 تشرين الأول 2013

ميساواجي، اسم المنطقة ولا أقول البلدة فهي أصغر من ذلك كثيرًا، لا سيما وأن خرنابات "محافظة ديالى" مازالت في سجل الدولة العراقية قرية. ميساواجي حسب لهجة السكان المحليين وفي لفظ آخر ميساوايي، أي قلب الياء جيمًا وبالعكس،هي جزء من الأمازون، أبعد من تَنا "تينا" قليلاً وأقرب من كوكا كثيرًا، طقسها مداري ونهرها يعانق الأجساد طوال الوقت، يداعب الموج القوارب الممتدة على ذراع النهر حيث الزواج الكاثولوكي بين نهري تَيْنا وميساواجي، لينتج من التقائهما نهر نابو مندفعًا بكل نزقه ومعه أحلام الفقراء وتمائم الأمهات وأمنيات حبستها صبايا في وسائدهن ليودعهن النهر، ونابو همّه نهر الأمازون حيث التسكع في كرنفالات السامبو.

القردة في كل مكان، تجلس في المقاهي وتزاحم الناس على قبعاتهم، تتلصص على الجميع وتسرق مايحملون ماءً وطعامًا وحقائب وكماليات، تجيد المزاح كثيرًا كما تجيد السخرية. ومثلما البط والدجاج والكلاب تمرح، كذلك الطيور التي لا انقطاع لمهرجانها الشعري الموسيقيّ فهي خير مَن يزاوج بين الشعر والموسيقى. وعلى الرغم من وقوع ميساواجي عند التقاء نهرين، لكن المسابح تملأ نُزُلها وشققها الفندقية.

المطر يرمي حمولته خلال نصف ساعة يوميًّا، وأحيانًا يواصل عمله لساعات، ثم يجلس يدخن سيجاره متفرّجًا على المارة بملابس السباحة المقتصدة جدًا بالقماش وهم يتراكضون في الاتجاهات التي جميعها تؤدي إلى ما يريده المطر، المطر الذي ينفث دخان سيجاره في وجهي وهو يقول: سوف تدوّن يومك هذا وأنت ترفع كأسك بصحتي.

السبت 12 تشرين الأول 2013، في القرية الكيتشوية

نهضتُ مبكرًا ورحت أطوف كراهب على ضفة نهر ميساواجي والغابة المحاذية له، الغالبية يغطون في نوم عميق، وأنا المولع بالطيور ومراقبتها، ومراقبة الطبيعة في الصباح الباكر، قبل أن يبدأ أصدقائي الباعة بالمناداة على بضائعهم، خرجت متنكبًا كاميرتي وشغفي وأملي بما هو جديد، كانت الحصى تجيز العبور عليها برفق وحذر، والماء يجري بنزق ليتماهى في أعماق نهر نابو العظيم. تذكرتُ أصدقاء الثمانينات، جلساتنا في بيوتهم أو في بيت العراب محمد زمان، حضروا أصدقائي معي بينما آلاف الطيور وعشرات الأنواع منها تحيطني بأصوات زقزقاتها وتغريداتها وتراتيلها وطوافها بين الأشجار. قضيت أقل من ساعتين وعدت لتناول فطوري، بعدها تسيّد المطر المشهد كاملاً، ولكن بعد الظهر استقليت قاربًا، زرت قرية هي في حقيقتها متحف، إذ شاهدت أدوات الصيد والعمل وكل ما يحتاجه المجتمع الكيتشوي في حياته، وبعضها مما شاهدناه في الأفلام السينمائية. لأول مرة شاهدت حيوانًا معرضًا للانقراض، كان يشعر بالوحدة فهو يتشبث بالزائرين، وهو برمائي ويشاطره ذات المستنقع تمساح، أخبرتنا مرشدتنا أنهما على وفاق، وشاهدتُ خنزيرًا أسود طالما شاهدته وهو مفترس على حد قولها، أظنه خنزيرًا بريًّا. زرت صيدلية القرية وتعرفت على الأدوية مثلما تعرفت على

النباتات الطبية، ولكن من سوء الحظ الدواء الذي يبعد الصداع لم أجده وحين سألتهم قالوا نفد.

كانت المحطة الثانية القرية الكيتشوية، ومثلها مثل بقية القرى النائية والبعيدة عن المدنية التي زرتها، التنقل يتم بالقوارب، وترتفع عن النهر بعدة أمتار، ومع ذلك لا تنجو من الغرق أحيانًا تحت وطأة الأمطار الغزيرة. في القرية التي حافظت على حياتها التقليدية وحولتها إلى تجارة رابحة، احتسيت التشيتشا واستمتعت بالغناء والموسيقى والرقص، ولكن التصوير حرمني من الرقص معهم كما هي عادتي، فمشاركة الناس حياتهم وتقاليدهم تمنحني البهجة وتزيدني تفهمًا لثقافتهم، وتجيب عن أسئلتي.

بعد ذلك شاهدت الحواة وأفاعيهم، وكان أحد الحواة طفلاً وأفعاه مثله يقل طولها عن المتر، بينما البالغون أفاعيهم تزيد على ذلك، ولجت إلى صومعة الكاهن، وقام بطقوس خاصة لطرد الأرواح الشريرة والريح الخبيثة، كان يحمل باقة من ورق نبات مخصص لهذه الغاية، ويغرّد بصفير حسن، تماهيت مع صفيره ولا أدري هل ثمة تطور حصل معي أم لا بعد تلك الجلسة، فهي عادات وتقاليد ومعتقدات احترمها كثيرًا واستمتع حين أشاركهم عقائدهم وثقافاتهم بغض النظر عن إيماني من عدمه. وفي القرية كما في جميع القرى التي زرتها ثمة مكان مخصص لبيع صناعاتهم التقليدية، كذلك صيدلية وقد بحثتُ فيها عن دواء للصداع فلم أجد.

حين عدتُ من رحلتي النهرية الكيتشوية، كنت بحاجة للقهوة احتسيتها في أحد المطاعم وخرجت أتأمل الناس ومعظمهم يراقب ويمزح ويلتقط

الصور مع القردة التي تمنح المكان نكهة خاصة، ومن الطرائف أن أحد القردة حمل جناح دجاجة والظاهر أحد الناس ناوله إياه، فاختار سيارة حمراء جديدة ونظيفة ليصعد فوق سقفها وتناول الجناح، ثم يترك العظام والجلد ويدخل الحديقة (المتنزه) وراح يمازح كلبًا، مرة تجده خائفًا منه ومرة يسخر منه وأخرى يخاف ويهرب، والكلب بين أمرين مرة ينتابه الخوف وأخرى يهجم بقوة. حتى أبعده صاحبه، واصلتُ مسيري وقضيت بعد ذلك حوالي ساعة في المسبح، لينتهي يوم السبت وقد ملأت رئتي بهواء أمازوني نقيّ وذاكرتي بوقائع جديدة ومدهشة، صانعًا من يومي يومًا يليق بالشعر.

الأحد 13 تشرين الأول 2013

حال نهوضي بعد السادسة صباحًا مباشرة، عبرت الجسر الذي من خلاله عبور نهر تَيْنا، والتجول في الضفة المقابلة، وهي منطقة ريفية بامتياز نادرًا ما تخدش خضرتها بناية، تتبعت الطيور، ولم أنتبه إلاّ وقد مشت بي تغريدات الطيور مسافة طويلة، فعدتُ أدراجي لتناول الفطور، بعد أن التقطت كاميرتي صورة لأفعى دهستها سيارة وأخرى لضفدع، مع صور لطيور وزهور. في الضحى اشتبكت في عناق مع نهر ميساواجي، كانت المياه باردة ولكن أثناء السباحة التي أكاد أجهلها، يتحول الجسد إلى منتشٍ بحبيبات الماء وبرودته.

غادرنا إلى تَيْنا، وفيها تناولنا الغداء وكان سمكًا بعصير جوز الهند، وهي ذات الأكلة التي تناولتها مرارًا حين كنت أعيش في لاوس، طبق تجده

في المناطق المدارية التي لا يكثر فيها نخيل جوز الهند، مع أسماك نهرية، لو قُدّمَتْ لي يوميًّا فلن أملّ منها؛ لكن الحق يقال إن المطبخ الأكوادوري فقيرًا وغير صحيٍّ، تكثر فيه الكاربوهيدرات كالرزّ والبطاطا والذرة والموز الأخضر، في وجبة واحدة وربما المعكرونة أيضًا، وكل ذلك الطعام غير الصحيّ مقليًّا يُقَدّم.

بعد ذلك زرنا منطقة نائية ولكنها مفعمة بالجمال والهدوء، كانت الكلاب تنبح بشكل مخيف، فأخبروني أن أتماسك ولا أسرع وحين تقترب كثيرًا أحاول أن أقف قليلاً ومن ثم أواصل السير بطيئًا، وحين وصلنا المكان لم نجد الشخص الذي جئنا لزيارته، توقفنا قليلاً أمام النهر والتقطتُ صورًا ثم عدنا أدراجنا، ومن ثم ذهبنا لبيت الشخص المعنيّ، وعلمت من رفقاء الرحلة أن هذا المكان هو مشفى استجماميّ، لما يمتاز به المكان من هدوء ومنظر خلاّب، وشخصيًّا اعتقد أن هذا المكان يُعدّ مثاليًّا كَمَشفى استجماميّ، للطب الشعبيّ أمازونيًّا وهنديًّا وصينيًّا وإلخ مع الراحة والهدوء والهواء النقيّ والطبيعة الساحرة، ففي زيارتنا لبيت صديق رفقاء الرحلة، وكان الرجل كريماً معي بالحديث عن مشروعه، مُتَحمّسًا له، ومما حدثني عنه هو شجرة الأَجاواسْكا التي تعتبر أم الطب الطبيعي (الأعشاب) في الأمازون. تقليديًّا تستعمل منذ آلاف السنين، في طب الكهانة الأمازوني، للتداوي من جميع الأمراض، في أربع جهاته الفيزيائي والنفسي والعقلي والروحي،(ترجمتها هكذا وحسبما فهمتها من محدثي وربما لغته الانجليزية لم تسعفه ليوصل لي مبتغاه). لأن الطب عند الأمازونيين يجب أن يكون متكاملاً بجهاته الأربع المذكورة أعلاه.

يؤمن العاملون بطب الأعشاب التقليدي في الأمازون ولاسيما الكهان الذين توارثوا هذا الطب منذ آلاف السنين، أنهم محاربون من قبل عصابات الطب الكيمياوي (الطب الأوربي – الامريكي الحديث) لما لهذه الشجرة من أهمية بالغة تجعل الملايين يستغنون عن الطب الكيمياوي الذي له أضراره، حسب قولهم. وهذه الشجرة تشفي حسب معتقدهم من جميع الأمراض من الضغط النفسي والكآبة إلى السرطان. لكن يبقى السؤال، هل حقًّا هذه النباتات وغيرها تملك هذه الخاصية أم هو المعتقد؟ ومن آلهة أو رموز المنطقة، تامبيرو وهو رجل أو امرأة يقودونك من هذا الجانب من النهر إلى الجانب الآخر، والفكرة هي العبور من حياة إلى حياة أخرى.

حضارة المنطقة وهي فالديفيا، حضارة موغلة بالقدم، 13 ألف سنة كانوا يعيشون في سلام في حين جميع الحضارات كانت في حالة حرب، وكانوا تجارًا ماهرين، وتجارتهم امتدت إلى مناطق شاسعة من المحيط الهادئ، جزيرة الفصح، غالاباغوس، هاوايي، المكسيك. كانوا يملكون توازنًا مطلقًا بين الأرض والسماء، أي المادية والروحية. امتدت حضارتهم بين 11000 ق.م. إلى 1437 ميلادية حيث تم تعرضهم للاحتلال على يد إمبراطورية الإنكا، ثم جاء الإسبان بعد ذلك بعقود قليلة.

الحلم الغالاباغوسي: 23-30 كانون الأول 2013

ظلت غالاباغوس حلمًا يراودني، حلمًا منافسًا لحلمي بزيارة الأمازون، فهذه الجزر التي قضى فيها العالم الأحيائي تشارلز داورن خمسة أسابيع

يجمع عينات ليحملها معه إلى موطنه ويقوم بدراستها لمدة عشرين سنة ويخرج علينا بكتابه المهم "التطور والارتقاء" حيث يعد ثورة في علوم الحياة والتي مازالت تُدرسها الجامعات، لم تبرح مُخَيّلتي وكنت أخشى مغادرة الأكوادور ولم يتسن لي زيارتها، ولكن هذا الحلم تحقق بفضل فوزي بجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات عن كتابي "مسافر مقيم .. عامان في أعماق الأكوادور". إذًا سأقضي سبع ليالٍ في عرض المحيط وثمانية نهارات أتنقل بين هذه الجزر التي لا يحق للأكوادوري أن ينتقل للعيش فيها إلاّ تحت شروط كالزواج وعقد العمل،

الأثنين 2013/12/23

نهضت في الرابعة فجرًا تحممت سريعًا وحلقت لحيتي، وتناولت فطوري وإذا بالسائق يرن علينا، حملت ما تبقى من الفطور في علبة بلاستيكية ووضعت حقيبتي على ظهري وغادرت الشقة، كانت إجراءات المطار كما لو أننا نسافر إلى بلد آخر والسبب أن جزر غالاباغوس منطقة محمية، وحسنًا حملنا جوازاتنا معنا فقد تم ختم الجواز بختم خاص بغالاباغوس، وكعادة الطيران الأكوادوري تأخر إقلاع الطائرة بعض الشيء، وكان التأخير أكثر في مطار غواياكيل، لكن وصولنا لمطار غالاباغوس لم يكن متأخرًا كثيرًا، بحثنا عن دليلنا وساعدنا أحد أدلاء الشركات الأخرى بالعثور عليه، كان مبتعدًا قليلاً عن مكانه المحدد.

نقلتنا حافلة مخصصة من قبل إدارة الجزر، إلى حيث ترسوا القوارب، كان علينا الانتظار لغاية مجيء القارب وتجهيزه، وبينما كانت عيناي

تلتقط كل شاردة وواردة في هذه الطبيعة المعزولة عن العالم. كانت أُذُناي تلتقطان ما يحدثنا به دليلنا وما يجري من نقاش بينه وبين بقية رفقاء الرحلة، الذين اتضحَ لي أنهم أجهدوا أنفسهم بالقراءة عن هذه الجزر، فكانت معلوماتهم وأسئلتهم مفيدة لي، والفرق بيني وبينهم أنني أحاول أن أقبض على الدهشة الأولى في سفري وترحالي، وعليه أحاول قدر الأمكان أن لا أقرأ عن الأمكنة التي سأزورها كي لا أحرم نفسي من الدهشة التي أراها مُغذّية رئيسية للشعر، وكنتُ محقًّا في رؤيتي فبينما كنت أرى كل شيء من حيوانات ونباتات وجغرافية بل وبيوت وكل ما يمت للحياة بصلة على أنه جديد عليّ، كنت أرى دهشتهم تكاد تكون ميتة، فلا حميمية فيها، فكل شيء قرأوا عنه، أي تسلحوا بالنظري وزيارتهم هي التطبيق العملي، كما في المدارس والكليات العلمية كالزراعة والصناعة والطب؛ بينما كنت صفحة بيضاء لم تحركها الكتب والمعلومات، كل شيء كان جديدًا عليّ نظريًّا وعمليًّا. ذهابي لجزر غالاباغوس مثل ذهابي لمشروع قراءة تاريخ العراق، كلا الأمرين بلا أحكام مسبقة.

معلومات لا بدّ منها

عدد جزر غالاباغوس ثلاث عشرة جزيرة رئيسية مع جزر صغيرة أكثر بكثير، وهي جزر بركانية تختلف في أعمارها، وعليه فأن حمم البراكين الباردة تشكل الهيكل العظمي أو جسم هذه الجزر إن صحت التسمية،

ففي كل مكان يمكن رؤية طبقات هذه الحمم البركانية. وهذه الجزر تقع على ثلاثة ألواح تكتونية.

تُعد هذه الجزر صحراوية ولكنها كما الأرض العربية التي ابتليت بسُمعة الصحراء المجدبة من غير الالتفات إلى كل هذا العدد الكبير والهائل من البشر والكائنات الحية التي تعيش على أراضيها. فكيف لصحراء قاحلة أن يعيش فيها البقر والخيول وكميات ما تحتاجه يوميًّا من مياه وحشائش لا يسمح لها بالعيش في الصحراء، فضلاً عن خبرين مهمين وردا في تاريخنا ومأثورنا الديني، الأول سورة أصحاب الفيل، وهو حيوان يحتاج لمياه كثيرة، والخبر الثاني هو نحل بني سليم الذي كانت تنتصر فيه على المهاجمين لها، وموضع بني سليم بين مكة والمدينة، والنحل الذي هو سلاح في المعركة بكل تأكيد أعداده كبيرة وهذا يعني أنه يحتاج إلى بساتين كثيرة أو على الأقل نباتات وأشجار كثيرة، لكنها الدعاية وكيف من الممكن أن يغلب الجزء على الكلّ. أعود إلى جزر غالاباغوس فهي بالرغم من نعتها بالصحراوية ولكن الخضرة فيها في أغلب الأماكن تقريبًا، أن زيارتي لها كانت في آخر موسم الجفاف وكانوا يترقبون بدء موسم الأمطار الذي تأخر قليلاً.

يظن الكثير من الناس أن هذه الجزر تحوي طيورًا وحيواناتٍ أصيلة ونادرة فقط بينما يجهلون أن 40% من النباتات لا توجد في مكان آخر سوى هذه الجزر، والمشاهد لهذه النباتات أنها في موسم الجفاف تخلع أوراقها ويتغير لونها إلى الرماديّ، مما يوحي للناظر لها أنها نباتات ميتة، والحقيقة ما أن يبدأ موسم الأمطار حتى تستعيد خضرتها. بعض النباتات

تعيش على المياه المالحة وبعضها قرب المياه المالحة ولكن الرياح تجلب ملح المحيط لها فتكون أوراقها مالحة حين المضغ. البَرَد يتساقط أحيانًا على أعلى جزء من الجزر، في المناطق المرتفعة ثمة غابات وأشجار عالية جدًّا، والتنوع أقل بكثير كلما ابتعدت جزيرة عن بقية الجزر ويزداد التنوع كلما اقتربت الجزر من بعضها. ويمكن مشاهدة الاختلافات كلما ابتعدنا فتكون الطيور والسحالي والعظايا أكثر اختلافًا. عمومًا نظام الطبيعة في غالاباغوس يختلف تمامًا.

1000 كلم غرب الأكوادور

في عام 1535 وبينما كان أسقف بَنَما "فرَي توماس دي بَرْلانْغا" في قاربه وصل إلى منطقة لا رياح فيها ولم يتمكن قاربه من المضيّ، وجرفه التيار المائي ليرى نفسه أمام جزر غالاباغوس، ليكون هو مكتشفها الرسميّ.

في 12 شباط 1832 حكومة الأكوادور أعلنت أن جزر غالاباغوس تعد أرضًا أكوادورية. ولجعلها منطقة سكنية، جلبوا إلى هذه الجزر بعض السكان وكذلك نباتات وحيوانات تسببت في النهاية بمشاكل كثيرة.

خوسيه فِياميل أول حاكم أكوادوري في الجزر، وقد سأل الحكومة الأكوادورية لاعطائه سجناء كي يعملوا في هذه الجزر مقابل حريتهم، وبعد خمس سنوات، حين لم يتحقق حلمه بخلق مجتمع جديد يقوم على سجناء سابقين، ترك المنصب والجزر معًا. بعد محاولة إعمار الجزر الفاشلة، أصبح الناس تستعمل موارد الأراضي لتصديرها للأكوادور، وقد

استعملوا زيوت السلاحف لإنارة الشوارع، كما قتلوا الكثير من الفقمة المشعرة "ذات الفرو" وبعد تجفيف الجلود أرسلت إلى الأكوادور. وتحولت هذه الجزر بمرور السنوات إلى مرتع للمجرمين حيث كانت الحكومة الأكوادورية تعيد تجربة الحكومة البريطانية حين كانت الأخيرة ترسل مجرميها إلى الولايات المتحدة الأميركية وبعد الثورة الأمريكية، أصبحت أُستراليا مرتعًا للمجرمين البريطانيين، كذلك فعلت حكومة الأكوادور فجعلت من جزر غالاباغوس مكانًا للمجرمين.

كانت ثمة محاولة لتصدير الملح الغالاباغوسي لداخل الأكوادور ولكن المحاولة باءت بالفشل، مثلها مثل الكثير من المشاريع الاقتصادية كمشروع الأشنة، إذ حاولوا جمع هذه النبتة التي تنمو على الأشجار واستخدامها كصبغةٍ، والكبريت وغير ذلك؛ ومن النباتات التي زرعوها هناك قصب السكّر.

هذه الجرز أصبحت محط جذب للعديد من الدول، مثل فرنسا والولايات المتحدة. فمقابل المبالغ التي استدانتها الأكوادور من بريطانيا في حرب استقلالها، عرضت على الحكومة البريطانية تأجير بعض الأراضي في الأكوادور وتكون جزر غالاباغوس الضمانة في حالة عدم ايفاء الحكومة الأكوادورية بالاتفاق، لكن الحكومة البريطانية رفضت العرض، ثم إن الحكومة الفرنسية كانت مهتمة كثيرًا بأمر الجزر، فحين توفي ليون إتوربورو، وكان مالكًا لإحدى الجزر وهي جزيرة فلورينا، حيث وهبها لإحدى الجمعيات، طالبت الحكومة الفرنسية بشراكة بهذه الجزر، الاّ أنسعيها ذهب أدراج الرياح، وجاءت الولايات المتحدة في 1883

لتدعي أن هذه الجزر يجب أن تكون مفتوحة للجميع وليست أكوادورية، ولكن حدوث مشاكل أخرى كثيرة في مناطق متعددة من العالم مما جعل الفكرة الاميركية تموت، وقد ساهمت حكومة فرنسا بطمرها بالقول إن هذه الجزر تعود لحكومة الأكوادور، ومن المفارقات أن الولايات المتحدة التي تسيطر على جزر بعيدة جدًّا عن أراضيها كانت حجتها في جعل جزر غالاباغوس متاحة أمام الجميع أنها تبعد 1000 كيلو متر عن الأراضي الأكوادورية.

في 1911 حكومتا الأكوادور والولايات المتحدة الأمريكية قاربتا على امضاء عقد إيجار للأخيرة لمدة 99 سنة ولكن الضغط الوطني الأكوادوري مع الضغط العالمي حال دون ذلك. وفي 1942 حين ضربت اليابان ميناء بيرل، خشيت الولايات المتحدة من أن تقوم اليابان بضرب قناة بَنَما، فقامت ببناء قاعدة جوية عسكرية في إحدى هذه الجزر وهي بالترا، ومطارها الذي يستخدم اليوم هو من بقايا تلك القاعدة الجوية التي قامت بتسوية الأرض. وفي سنة 1947 توقفت حكومة الولايات المتحدة من استخدمها لتعيدها إلى حكومة الأكوادور في سنة 1949. ما بين 1946 – 1959 كانت ثمة مستعمرة للمجرمين، تحت مراقبة حراسة مشددة، وكان الحراس جد سيئين مع المجرمين لدرجة القتل، مما جعل المكان مشهورًا كمكان رعب للمجرمين، وبعد ثورة السجناء اضطرت الحكومة لغلق المستعمرة.

من مشكلات الجزر، الماء العذب يعد أحد أكثر المشاكل في بعض الجزر، لأن المناطق الزراعية فيها توجد في الأراضي المرتفعة حيث

الأمطار بينما الأراضي المنخفضة والتي هي سواحل الجزر تكون عادة جافة، ولكن يبقى أغلب الطعام مستوردًا من الأرض الكبرى أي الأكوادور، بل بعض الجزر تخلو تمامًا من الماء العذب كجزيرتي إيزابيلا وفلوريانا، وجميع ما يصلها من ماء هو مستورد. جزيرة لا ماء فيها على الأطلاق. الأموال التي تجلبها السياحة لا تشكل فائدة كبيرة للسكان المحليين، وأمّا بخصوص الصيد فيحق للصياديين المحليين الصيد بما في ذلك المحميات. يُعد تيار الماء في البحار والمحيطات ذا أهمية كبرى فعليه يتوقف النمو الأحيائي.

العظـايا

في أثناء الانتظار كنت أتأمل العظايا برية وبرمائية، وهي منتشرة بشكل كبير في هذه الجزر، وهذا الحيوان المسالم للغاية نباتيّ ويتغذى على الفواكه كالموز والبابايا والصبّير، ويضمّ ليس في الجزر فقط بل في الأمريكيتين عمومًا ما يقارب من سبعمئة نوع، ويتحمل الاختلافات الشديدة بالبيئة من غابات وصحارى و...إلخ؛ وهذه الأنواع من مميزاتها وبالرغم من الاختلافات البسيطة فيما بينها، أنها تملك خمسة أصابع في كل قدم مع مخالب طويلة، وأجسامها حرشفية خشنة، مع ذيل طويل يزيد على نصف طول جسمها، مما يساعدها على الجري أو السباحة السريعة مع حفظ التوازن، وعرفها يمتد على طول الجسم بما في ذلك الذيل.

العظايا البرمائية: جزر غالاباغوس هي المكان الوحيد في العالم الذي نرى فيها عظايا برمائية، تغوص في البحر وتتناول الطحالب البحرية، وهذه العظايا لديها القدرة على الانكماش بنسبة عشرين بالمائة بما في ذلك عظامها.

السلاحف العملاقة

استعمل القراصنة والناس الذين عاشوا في هذه الجزر لحوم السلاحف العملاقة كطعام، وبما أن هذه السلاحف لها القدرة على العيش لمدة سنة كاملة بلا ماء وطعام، فقد كانت خير وسيلة للقراصنة لصيدها ووضعها على ظهورها لكي لا تتحرك، وعندما يحتاجون لطعام وهم في عرض المحيط فهي اللحوم الطازجة التي لا تحتاج إلى تكلفة بالغذاء والماء، وكانت أناث السلاحف هي الضحية في هذا القمع البشري للطبيعة، فهي تحتاج الذهاب إلى المناطق المنخفضة من الجزر لوضع بيوضها، فاستغل القراصنة والناس الذين ذهبوا للسكن هناك هذه الخاصية عند أناث السلاحف العملاقة ليصطادوها مما جعل أعدادها تتضاءل كثيرًا، وبذلك حرمت الطبيعة منها.

وجورج الوحيد، هو آخر ذكر من إحدى سلالات السلاحف العملاقة البرية، إذ حاولوا أن يجعلوه يتزاوج مع أنثى سلحفاة لكي يتم الحفاظ على هذه النوعية ولكنه لم يفعل وبموته عن عمر يناهز المئة كما يُعتقد في حزيران عام 2012 انقرضت هذه السلالة؛ وكانت هذه السلاحف حتى وقت قريب تستخدم في البيوت كحيوانات أليفة مثلها مثل الكلاب

والقطط، بل حتى المدرسة الأميركية في كيتو كان فيها عدة سلاحف عملاقة، لكن قرارًا حكوميًّا قام بسحبها من البيوت ووضعها في محمية مركز تشارلز دارون للبحوث، وقد فصلوا الإناث عن الذكور كي لا يحدث التزاوج ومن ثم ولادة أجيال مهجّنة، وسبب هذا أن القائمين على المركز يجهلون من أي الجزر أصل هذه السلاحف. وهذه السلاحف تحتاج ما بين 20 – 25 سنة حتى تبدأ بالتزاوج والتكاثر. السلاحف المائية: السلاحف الخضر يقتربن من الساحل وفي الليل يغتسلن برمال الشاطئ ويضعن بيضهن، وحين يكون عش السلحفاة باردًا يفقّس البيض عن ذكور وحين يكون حارًّا تفقس عن إناث، وأثناء التزاوج ينتظر ثلاث أو أربع سلاحف ذكور دورهم بالتزاوج مع الأنثى، أي أنثى واحدة مقابل 4 – 5 ذكور.

في الجزر عدد كبير من الطيور المائية والبرية والبرمائية، ولكن يبقى طائر الحسّون، أو حسّون دارون كما يطلق عليه، وأنواع هذا الطير هي التي أوحت لتشارلز دارون بنظريته، وعدد أنواعها ثلاثة عشر نوعًا، والذكور لونها أسود بينما الأناث وفراخها بُنّيّة اللون، وهي تتشابه كثيرًا ويكاد لا يميزها سوى مناقيرِها.

ثلاثة أيام وأنا منهمك بتدوين يوميّاتي وكل دقائق الأمور التي تمر بي في رحلتي هذه، وكتبت قصيدة لا أتذكر منها سوى هذه الجملة (كنت حُلمًا وأصبحت ذكرى) لكن ونتيجة لعدم تمكّني من الآي باد مسحت كل ما كتبت، شعرت بمرارة كبيرة فعلاً، فأكثر من ألفَيْ كلمة ذهبت أدراج الرياح؛ إنني أضعت شيئًا ثمينًا، كتبت عن غناء طير سمعته اليوم وأحالني

إلى مدينتي كربلاء، إلى صديق شاعر كان يسكن محلتنا (باب السلالمة) ولكنه جعل من زقاق معروف ومميز بعوائله الكريمة والعريقة وجمال صباياه، مركزًا للكون، فكل الطرق لا يمكن الوصول إليها إلّا من خلاله حتى لو كانت هذه الطرق في الطرف الآخر من المدينة. غناء الطير ذكرني بغناء صديقي الذي لا تتفتح حنجرته على الغناء ولا قريحته على الشعر إلّا في "عقد السادة"، وهو اسم الزقاق بل هو اسم على مسمى، كان يغني أو قل يتوجع حبًّا لفتاة بيضاء طويلة ذات شعر طويل وطويل جدًّا، لكن العاذلين له بالمرصاد، وليس لصاحبي من عاذل وإنما كان يتوجع فقرًا يسكنه مقابل ثراء تتنعم به محبوبته وطريقة عيشه وتفكيره، حتى وصل إلى قناعة أن وضعه المادي وطريقة عيشه وتفكيره هم العاذلون.

الخميس 2013/12/26: زرنا جزيرة فلورينا، وهي كبقية الجزر جافة، أول ما طالعنا هو البريد، فقد كان الحوتيون (صيادو الحيتان) يضعون بريدهم هنا وحين يمر التجار الأوربيون يحملون البريد معهم ليرسلوه إلى بلدانهم، وأصبح تقليدًا، وعليه قمنا بفحص البريد وبعض رفقاء الرحلة وجدوا بطاقات بريدية تعود لبلدانهم فحملوها معهم، ووجدنا زوجتي وأنا بطاقتين بريديتين تعودان لشخصين في زي الجديدة (نيوزيلندا) سوف أرسلهما مع زوجتي في أول زيارة لها لوطنها. قبل أن نتوغل في الجزيرة بالحدود المسموح بها وهي قليلة عادة كي تحافظ هذه الجزر على عذريتها وبريتها، شاهدنا بقايا بناء ذكرني بالأطلال التي طالما ذكرها الشعراء العرب في قصائدهم قبل الإسلام وبعده.

الجمعة 2013/12/27: جزيرة سانتا كروز، زرنا محمية للسلاحف البرية والعظايا البرية أيضاً، وقدم لنا الدليل شرحًا عن المكان وطريقة عمل المحمية، وكان من حسن الحظ أن تقديم الطعام لهذه الحيوانات المسالمة قد تم أثناء وجودنا، مما مكنني من التقاط صور لها وهي تتناول طعامها، كانت المحمية بل الجزيرة مليئة بأنواع عديدة من الطيور.

جزيرة سانتا كروز وهي أكبر جزيرة مأهولة بالسكان، وأغلب الجزر غير مأهولة، أي مازالت على بريتها، الحياة في عمق المحيط لها سلبياتها الكثيرة لاسيما في زورق صغير لا يسع إلا لثمانية أشخاص. خلال الأيام الماضية زرنا جزرًا عديدة ورأينا حيوانات كثيرة ومعظم الجزر مازالت جافة مما جعل غاباتها تبتعد عن الخضرة. كان دارون رفيق رحلتي ومازال، فكلما أتأمل هذه البرية المنعزلة عن العالم انحني أمام عبقرية هذا الرجل.

أمس تعرضت لدوار البحر، عالجته بطريقتي ونمت على سطح المركب.

واليوم وأنا في جولة في الكهوف التي خلفتها البراكين، رأيت بومًا نائما فقمت بتصويره ولكي أتخلص من الحشائش الكثيفة التي تعيق تصويره بشكل جيد، قمت بتنظيف المكان فكان جرحًا غائرًا في سبابتي لأن أحجار البراكين تكون حواشيها وفراغاتها كما السكاكين، لم ينقطع الدم، عالجته بأوراق نباتات كانت هناك. وحين وصلت للبلدة ذهبت للمستشفى لتنظيفه وتعقيمه فحاولوا اعطائي دواء فرفضت. استغربن اللواتي في القسم فبررت الأمر أن الأدوية تجعلني أشعر بعجزي.

سوف أحاول أن أدون ما استطيع غدا فبعد ساعة سوف ينطلق الزورق للوصول إلى جزيرة أخرى تحوي نباتات وحيوانات وطيورا مختلفة، وهذا

يعني صعوبة النوم بسبب صوت المركب الذي يسير ليلا كي يوفر علينا النهار لنقضيه في الجزر والشواطئ والتعرف على ما في الجزر من نباتات وحيوانات وطيور كالبطريق الاستوائي وأسد البحر والسلاحف والطيور ذات الأقدام الزرق وذات الأقدام الحمر و... إلخ.

التقطت صورا كثيرة لبيئة هذه الجزر التي قضى فيها العبقري تشارلز داروين خمسة أسابيع، جمع فيها عينات وحملها معه إلى انجلترا ليقوم بدراستها على مدى عشرين سنة ليخرج بنظريته في التطور والارتقاء.

السبت 2013/12/28 فجرًا.. ثمة أماكن من الصعب زيارتها أكثر من مرة، بالنسبة لظروفي الخاصة، وعليه تعودت في كل رحلة لي أن أتعامل مع المكان على اعتبار أنه زيارتي الأولى والأخيرة له، فأحاول قدر المستطاع استنشاق روح المكان، واستنفر حواسي جميعها. لكن هذا لا يعني أنني أنجح نجاحًا باهرًا في كل مرة، ولكن في كل مرة أتعلم أكثر، فأخطائي هي الطريق الذي يقودني للتجاوز والنجاح.

فجر غالاباغوس إذ النجوم تملأ السماء تشبهًا بالأنوثة وهي تتوسل جسد حبيبتي، قاربنا الصغير يخمر عباب المحيط الهادئ متنقلا من جزيرة إلى أخرى على أمل وصولنا صباحًا، فعادة نقضي الليل بالسفر كي نوفر النهار للاستكشاف والمشاهدة واكتساب الخبرات لإثراء التجربة، لكن هذا السفر الليلي يحرمنا النوم لما يسببه محرك الزورق من ضوضاء، ومع أمواج المحيط وتقلبات الرياح، يفقد قاربنا الصغير كياسته فيترنح سكرانًا حسب تعبير الشاعر آرثر رامبو، وهذا الحرمان من النوم مع دوار البحر جعل الإرهاق واضحًا علينا، مما اضطر عائلة فرنسية شابة (زوج وزوجته)

أن تخسر ما تبقى من الرحلة أي ثلاثة أيام، لكن إصراري جعلني أودع ثلاث فتيات كوريات وشابا سويسريا واستقبل أربعة أشخاص جدد فتاتين وشاب ألمان وفتى سويسري من القسم الألماني فيها.

الوقت عصرًا وليس كثيرًا بيننا وبين أن تودعنا الشمس بعد عناء يوم كانت الغيوم ترهق توهجها، مازلنا في جزيرة سانتياغو التي وصلناها صباحًا مبكرين كي نكون أول من يستقبل شمسها، والتي تقول أسطورة أخبرني بها عجوز خلف قرنين وراءه يتخذ من ظهر سلحفاة عملاقة مستقرا له، "إن مشاهدة شروق الشمس في جزيرة سانتياغو يطيل العمر ويقوي الباه"، شاهدنا عددًا كبيرًا من العظايا البرمائية ومن أسود البحر، وبعض الطيور وعددًا من السحالي، كانت جولة معرفية مثلا عرفنا الفروقات الستة بين أسد البحر والفقمة، كما شهدنا نوعًا مختلفًا من أسود البحر تمتلك شوارب ويكثر من المزاح، وأثناء العودة شاهدت هيكلا عظميا لعظايا التقطت له صورة وواصلت حتى وصلت الشاطئ وجدت رفقاء الرحلة منهمكين استمتاعًا بمشاهدة العظايا والسلاحف والقرش الصغير وبقية الأحياء المائية من خلال الغطس السطحي.

من المفارقات في حياتي أنني وعلى الرغم من كثرة تنقلي بين البلدان ولكن لم أمارس السباحة التي لا أجيدها إلا في المحيط الهادئ، زي الجديدة "نيوزيلندا" واليابان والأكوادور، وكلها تقع على المحيط الهادئ، واليوم للمرة الثانية في أثناء الرحلة مارست السباحة، ولكن لم استمتع كما في المرة الأولى، وكعادة الغشيم شربت ماء رغمًا عني في المرات السابقة، ولا أدري كيف سأحسن ولا أقول أجيد السباحة

مستقبلا. حين عدنا للزورق تحممت وتناولت غدائي لننتقل إلى شاطئ آخر من الجزيرة يبعد حوالي نصف ساعة إبحارًا، وحين ترجلنا من القارب، سألنا الدليل عن أعماق الجزيرة أكد أن لا شيء يستحق التوغل فيها وأن البقاء على الساحل والغوص لمشاهدة السلاحف والعظايا والقرش وغيرها من أحياء البحر لهو خير، فاستأذنته بالتوغل واعدًا إياه أن أَلْتَزم بالخط المرسوم وعدم التجاوز على ما هو غير مسموح به. ثمة أسهم موضوعة كي لا يقوم السائحون بالتوغل في الجزر طولاً وعرضًا وذلك كي تتم المحافظة على عذرية الجزر.

كانت رحلتي في أعماق الجزيرة وتحت ظلال غاباتها البركانية شبه الجافة، قد أتاح لي متعة كبيرة وأنا أراقب الطيور والعظايا والسحالي الصغيرة الحجم بألوانها المختلفة وأحجامها، وتمكنت من التقاط صور كثيرة لها مع قضاء وقت لمتابعتها مشددًا مع نفسي على عدم التسبب بإزعاجها، وإلا ما قيمة الدفاع عن البيئة وعقد صداقة معها وحرصي على التعلم منها، كانت رحلة ما بعد الظهر من أروع المتع التي مارستها خلال رحلتي الغالاباغوسية، بعد ذلك عدت للشاطئ لأجد رفقاء الرحلة وهم يتأهبون بانتظار وصول الزورق البخاري الصغير لِيَقلّنا إلى قاربنا، وهذا الزورق البخاري الصغير أكبر قليلاً من زورقنا البخاري الذي يقلنا من القارب إلى الشواطئ وبالعكس، لأن زورقنا البخاري تعرض للعطل.

الأحد **2013/12/29**: اليوم هو السابع في رحلتي الغالاباغوسية، وكعادة الطقس هنا، الغيوم تتسيد المشهد صباحًا، ثم تنفض إلى مهاجعها رويدًا رويدًا، مثل ثوار الندوات، أو الفضائيات وربما شعراء الفضائيات

الذين لا يجد النقد فيهم ما يغري بالتناول. غيوم تراها في الصباح المبكر صفا كالبنيان المرصوص، فلا تنفع معها كل محاولات الشمس بفتح كوة لتطل بإشراقتها التي حرمنا منها طوال الرحلة، أعني حرمنا وقت الشروق، لكن غيوم الفضائيات (هكذا أطلقت عليها) تتراجع خاذلة نباتات الجزر بماء يزيل عنها عطشًا، أبدل خضرتها بألوان باهتة تتراوح ما بين البني الفاتح والرمادي والأصفر إلا في نقاط معينة تتبدى الخضرة خجلة أحيانًا.

قضينا ليلتنا أمس قرب جزيرة رابيدا، وهي إحدى أصغر الجزر، وقد لعب دوار البحر بي لعبته مهما حاولت التغاضي عنه لكنه كان لي بالمرصاد، وأنني ساعدته حين بقيت طوال الطريق من جزيرة سانتياغو وحتى جزيرة رابيدا، على سطح المركب أراقب حركة الموج والطيور وأنقضاضها على الأسماك، فأفسحت مجالاً واسعًا للبرد أن يتغلغل في جسدي، وعند تناول العشاء لم استطعم الأكل على الرغم من وجود السمك ضمن وجبة العشاء، وما تمكنت من تناوله هو قطع القرنابيط الأبيض والأخضر، وصعدت لسطح المركب، متلفعًا ببطانية لعل وعسى، لكن دون جدوى، وبعد ذلك حين سألوني أن أتناول الشاي رفضت، ورفضي لتناول السمك يعني أنني مريض ولكن عدم رغبتي بتناول الشاي يعني الكثير، فعلاقتي بهذا المشروب لا تضاهيها سوى علاقتي بالماء، يخيل لي أن متعة احتسائي للشاي لا تختلف عن المتعة التي يجدها عشاق احتساء النبيذ. تناولت حبة دوار البحر وعلى سطح المركب نمت، فلقد لاحظت أن الهواء النقي فوق المركب على شرط ارتداء ملابس تقي البرد، يساعد

كثيرًا في التخفيف من دوار البحر، عكس النوم في داخل المركب في السرير. كان مفعول الحبة جيدًا ولكن لا يعني هذا أنني تركت عادتي في الاستفاقة مرارًا خلال الليل، وهي عادة ملازمة لي منذ سنوات، حتى إنني أغبط من يستطيع النوم لعدة ساعات متواصلة.

بين غلاباغوس وياسوني، ثمة مناطق تتعرض للظلم حين تكون زيارتها متأخرة بعض الشيء، كما حدث مع زيارتي لغالاباغوس، التي أنا في ساعتي الأخيرة فيها إذ لم يتبق على إقلاع الطائرة سوى ساعة واحدة فقط. إن سمعة غالاباغوس متأتية من تشارلز دارون، الذي كانت زيارته لها لمدة خمسة أسابيع كافية ليعكف على مدى عشرين سنة لإخراج نظريته "التطور والارتقاء" محدثًا ثورة في علم الأحياء، كما نوهت سابقًا. بينما محمية ياسوني تملك من مؤهلات التنوع والثراء البيئي ما يجعلها قبلة السيّاح في العالم، ولكن مع ذلك غير معروفة على نطاق عالمي واسع كما هي غالاباغوس؛ ولتجنب المقارنة التي برعت فيها أي برعت في تجنبها، جعلني أبعد الصورة التي رسمتها الشهرة عن غالاباغوس، لأتجاوز الإحباط الذي لازمني حين وجدتني في هذه الجزر الجافة ولم أر أسرابًا لا حصر لها من الطيور كما كنت مخطئًا أظن، لكنني اعترف بفرحي أن أكون هنا، مصطلح البرية الذي طالما داعب مخيلتي بأنه المكان الذي تكثر فيه النباتات الجافة وتقل الخضرة حد الجزع، إذ لا أنهار ولا شلالات لتبتهج نفسي مذكرة أياي أن جذوري نهرية وأنني ابن الماء الحي الجاري.

كان المحيط يفرض سطوته وكأني به يقول إن الأنهار التي تبغي تتلاشى في عالمي الواسع. عكفت على التصوير، ولم أكن أطيق التدوين كثيرًا، فسرعان ما أشعر بالتعب، والسبب صغر مركبنا وسط محيط هو الأكبر بين المحيطات، لكنني في كل الأحوال خرجت بتجربة رائعة ومتعة أضفتها لمتعي التي هي ذخيرته وكنزي وبهجتي. قرأت فقرة في كتاب عن الأكوادور وغالاباغوس تقول "كل ما تشاهده في البرامج والأفلام الوثائقية وما تقرأه في الكتب، لا يفي بالغرض إن لم تزر جزر غالاباغوس" وهي حقيقة لمستها بنفسي ليس في غالاباغوس فقط وإنما في جميع الأماكن التي زرتها أو عشت فيها.

خوان خليمان.. وداعًا

خوان خيلمان (بوينس آيريس 1930– 14 كانون الثاني 2014) الشاعر الأرجنتيني الأهم، شاعر مدهش حقًّا، لم أقترب منه ربما لرهبة الشعر والوقوف أمام ملكوت الإبداع، شَعره الثلجيّ الطويل يضفي وقارًا عليه. كان نجم المكان بلا منازع، مئات الصور الفوتوغرافية التقطت له ومعه، إضافة إلى المتحرك (الفيديو)، مُنح وسام الثقافة الأكوادورية، كما استلم هدية، نيابة عن الشعراء المشاركين، هي عبارة عن سجادة صغيرة حياكة يدوية من كوينكا، كانت تحفة فنية بحق، ومن خلال الإهداء عرفت أن كوينكا المدينة الأحب إليّ في الأكوادور، تمتاز بهذه الصناعة الشعبية التراثية. خوان خيلمان، مواطن بورخس والمدافع عنه، بقوله "أعمال بورخس في رأيي لا مثيل لها رغم أن شعره لا يعجبني.. لا شيء

يُهضم من أفكار بورخس، علينا استيعابه فحسب"، قد عانى من اختفاء ابنه وزوجة الابن بحثًا عن الحفيدة التي خُطفت عند ولادتها، ليلتقيها بعد 23 سنة.

أعدت طاولة خاصة له ليجلس ويقرأ شِعره، وحين أسندته عريفة الحفل عَلَّقَ مبتسمًا، ولكن أقرب للجدية منها للمزاح لمن لا يعرفه، "من المفيد أن تكون عجوزًا لكي تسندك أمرأة جميلة، هي تتبرع لتكون معك في ما يشبه العناق" وكانت عريفة الحفل شهية حقًّا بملامحها العربية المعجونة بالتزاوج الأيبيري الأمازيغي الآرامي مع السكان الأصليين، فمما لا أشك فيه لحظة، هو أن أعدادًا من آراميّي منطقة الهلال الخصيب الكبرى قد نزحوا للأندلس، ومنها بعد قرون للعالم الجديد.

كانت قراءته قد استغرقت وقتًا أطول من بقية الشعراء، ولِمَ لا فهو خوان خيلمان، وهو نجم المهرجان الأول، شاعر يحملك إلى عوالم الشعر حتى وأنتَ تجهل لغته كما حدث معي، ألم يكن هو نفسه يجهل قصائد الشاعر الروسي بوشكين حين كان يترنم أخوه بها وكان الأخير مجنونًا بالشعر؟! وإذا كانت موسيقى قصائد شاعر روسيا الأكبر قد جذبته فإن وقار وهيبة شاعر الأرجنتين الأكبر قد جعلتني أراقبه متأملاً شاعرًا لم يتربع على عرش الشعر الأرجنتيني لولا إخلاصه الكبير للشعر. لقد دفع الكثير لمواقفه مع ثوار بلده ضد حكم العسكر، ولا أود الخوض في مأساته بقدر ما أود التنبيه على أهمية موقف الشاعر والذي يجب أن ينحاز فيه ليس للهوية الضيقة (مذهب، قومية، اثنية، عقيدة.. إلخ) بل الوقوف مع الجمال والوطن ككل وهو ما تفتقر إليه ثقافتنا العربية مع

الأسف، فخيمان الذي انتمى للأرجنتين ولم ينتم لطائفته الدينية اليهودية المختلفة عن الغالبية العظمى لعقيدة أهل وطنه المسيحية الكاثوليكية، وكان ابنًا بارًّا للغة الرسمية في الأرجنتين وهي الإسبانية ولم يتعصب لجذوره الأوكرانية، كان أرجنتينيًّا متطلعًا لحياة كريمة لوطنه وشعبه.

كنتُ أتأمل هذا الشاعر الكبير وصور شعراء بلدي العراق وبقية البلدان الناطقة بالعربية أمامي بل وجميع مثقفي المنطقة وكيف انغمسوا بالطائفية والهويات الضيّقَة ومالئوا الأنظمة أو الأحزاب.

فاز خيلمان بالعديد من الجوائز منها جائزة خوان رولفو، وبابلو نيرودا، والملكة صوفيا للشعر المكتوب بالإسبانية، وجائزة ثربانتس، نوبل الأدب الإسبانى. وكان يكتب عمودًا أسبوعيًّا فى "دياريو أرخينتينو" الصفحة 12. وقبل فترة كرمته بلاده بمنحه وسامًا شَرَفيًّا، فهو الذي جرب النفي واللجوء السياسي لأكثر من عقد من السنوات.

مات خوان خيلمان صاحب الشِّعر المهيب الذي تحدث عنه في تلك الأمسية الكيتوية الحزيرانية، ومازال صوته يهجسني كما هي طلّة تلك الفاتنة عريفة الحفل وهي تتأبطه غير عاشقة وإنما لتساعده على شيخوخته متجاهلة أن قلب الشاعر لا يشيخ وأن عطر امرأة جميلة قد يطيح به حتى لو بلغ المائة وربما حتى لو داهمه الموت.

طوفان نوح يصل إلى البيرو متأخرًا

تشتهر البيرو بالفضيات، وفي حفلات الأعراس يقدم للعروسين الكثير من الفضة، أوانٍ وتحفيات وصوانٍ ومزهريات وحُلٍ و...إلخ، وهو ما لاحظته

في كل مكان بما في ذلك مطار ليما الدولي الذي ما أن خرجت منه حتى توجهت لمكتب أو مقهى لفحص بريدي والكتابة على متصفحي، لكنني لم أتمكن والسبب هو ما أواجهه وغيري من أسئلة إدارة مواقع التواصل الاجتماعي، لضمان سلامة الحساب والبريد والمتصفح. بعد ذلك انتقلت من المطار الدولي إلى المطار المحلي وتوجهت بنا الطائرة إلى عاصمة إمبراطورية الإنكا، مدينة كوزكا أو كوسكو، كانت سلاسل جبال الأنديز تحتنا وفي أنفاسها تاريخ من الدمع والدم، لا تخلو قمم الجبال عادة من الثلوج التي هي إبتسامتها الطبيعية للشمس.

ما أن وصلنا توجهنا للنُّزُلِ، وهو بيت قديم كبير تصميمه العربي جاء مع الملايين العربية الثلاثة التي نزحت من الأندلس وتوزعت على امتداد أمريكا الجنوبية؛ ما أن وضعنا الحقائب حتى خرجنا لنكتشف المدينة، فلا وقت نضيّعه، سألنا مديرة النُّزُل فاقترحت أن تتصل بدليل نذهب معه بسيارته وهو يختصر علينا الكثير من الوقت، فتناولنا طعامنا وما أن انتهينا حتى كان الدليل ينتظرنا مثل ما أخبرتنا به السيدة، وعلى مدى يومين زرنا مناطق عديدة بعضها جانب من آثار مدينة كانت ذات يوم عظيمة، وعلى الجهة المقابلة لها بقايا طوفان. تقول إحدى النظريات إن اختفاء المدينة العظيمة ذات القوة العسكرية الجبارة والتطور الحضاري لم يأت نتيجة غزو, فهم أهل غزو وجبروت قتالي في غاية التطور في المنطقة آنذاك، بل إنه نتيجة طوفان عظيم غَمَرَ المنطق, وما البحيرات الضحلة التي أمام آثار المدينة في الجهة المنخفضة إلا بقايا لهذا الطوفان.

حين سمعت هذا الكلام قلت إن طوفان نوح الشهير، وصل إلى البيرو متأخرًا أربع آلاف سنة لا غير، فهذا الطوفان حدث في منتصف الألفية الأولى للميلاد، لكنهم لم يجدوا ألواحًا تركها أحفاد سلفي العظيم نوح– أوتنابشتم – زيوسودرا – أتراحسس، وعليه فهي حضارات غير مدنية لأن الشعوب التي لا كتابة لها لا مدنية لها، فالكتابة أولى أُسس المَدَنيّة والشعر هويّة الأمة ورمز شخصيتها؛ بعدها ذهبنا لبناء عجيب، وهو عبارة عن قناة مائية على ارتفاع واضح من الحجر، وبإمكان الناس والحيوانات والعربات العبور من تحتها، وربما لا أبالغ إن قلت إن حافلة ذات طابقين لا تجد صعوبة في العبور.

ينمّ هذا البناء عن عقلية حضارية زراعية، وهو ما تميزت به حضارة الإنكا، التي برَعَت بالزراعة وفنونها وهذا ليس أول معمار زراعيّ أقف أمامه مندهشًا، بل إننا زرنا مكانًا يستحق أن نعدّه من العجائب. حفرة عميقة متدرجة خمس عشرة سُلَّمَة دائرية، ارتفاع الواحدة منها مترًا وحين تم قياس درجات الحرارة اكتشفوا أن فرق درجة الحرارة بين القاع والسطح خمس عشرة درجة، أي درجة حرارية واحدة بين سُلَّمَة وأخرى؛ مما سمح بجعل هذه الحفرة العميقة مكانًا لزراعة أنواع من المحاصيل الزراعية التي تختلف حاجتها للحرارة، مما يوحي بوجود مختبرات في تلك الحضارة التي قضى عليها الإسبان.

المدرجات الزراعية تنتشر في كل مكان في بلد خصص مُتحفًا للبطاطا لأن أنواعها تزيد على الألف نوع بكثير، حيوان الياما (اللاما) منتشر في كل مكان، ومن صوفه تحاك ملابس وكنزات وأنواعًا كثيرة من الملابس

والسجاد، وللذكرى اقتنيت وشاحًا هو الأغلى الذي اقتنيته في حياتي، مع سجادة صغيرة أحملها معي أينما أذهب، لتبقى ذكرى من ذلك البلد الذي كان مع الأكوادور وكولومبيا يشكلون كولومبيا الكبرى التي أريد لها أن تكون نواة لوحدة أمريكا اللاتينية؛ لكن أحلام سيمون بوليفار تهاوت بدكتاتوريته مثلما تهاوت أحلام الضباط العرب بعد استيلائهم على مقاليد الحكم، وعاثوا ظلمًا مما جعل الناس تنفر من العروبة أي من هويتها. وعلى ذكر الياما فهذا الحيوان انقرض من الأكوادور مما اضطرها أن تستورد كمية من جمهورية البيرو.

تمتاز مدينة كوزكو (كوسكو) بأنها تقع على ارتفاع **3400** متر فوق مستوى سطح البحر ونفوسها حسب إحصائية **2013** يزيد على **400** ألف نسمة، وهي تعد ميراثًا إنسانيًّا بحسب تصنيف اليونسكو، مازالت رائحة عصرها الذهبي ماثلاً في أزقتها الحجرية التي تحتفظ بصرخة أخر إمبراطور لحضارة الإنكا عندما نادى إلهه (الشمس) بجملة تكاد تتطابق مع قول السيد المسيح ﷺ "لماذا تركتني؟" ومن جماليات البناء فيها أن الأحجار الكبيرة التي تستعمل في البناء جعلوا أحجاراً صغيرة للغاية بينها، أغلقت الفراغات وأعطت جمالية مميزة للعمارة. والحفاظ واضح على الكنائس والبنايات التي بناها الغزاة الإسبان على خرائب العاصمة التي فقدت مجدها مع وقع سنابك خيولهم، وسوء تقدير الكهنة الذين ظنوا أن الرجل الأبيض هو المنقذ، ففي إحدى الأساطير، أن نبيًّا أبيض البشرة غادرهم منذ زمن وسوف يعود، مما جعلهم يخرجون بلا سلاح

مستقبلين الجيش الإسباني، فما كان من هذا الجيش إلاّ أن أعمل السيف فيهم.

كان الدليل يتحدث ويرينا الأحجار العملاقة التي عمرها سبق القرن السادس عشر الميلادي ربما بمدة زمنية طويلة، وذلك الوجه العجيب المنحوت في نتوء جبل جعلني أفكر بأمرين، الأول وهو كيف تأتّى لهم نحته, وكيف جلبوا هذه الصخور العملاقة من الجبال التي في الجهة المقابلة؟ إن شرح الدليل لنا لا شكّ أنه مقنع ولكن هل مَن جلبوا الصخور كانوا عبيدًا أم مؤمنين يرجون نيل رضا وبركات الألهة؟ ولماذا صمت التاريخ عن الضحايا كعادته، مما يمنح الرواية الرسمية أن تسيطر مهما كانت هذه الرواية واهية. والثاني تشابه قصص الطوفان والمنقذ عند الشعوب، فغياب نبي أو مصلح وعودته في جوهر الأسطورة شبيه بما يعتقده يهود ومسيحيون ومسلمون وسواهم من الديانات والمذاهب.

ماتشو بيتشو

وصلت تَوًّا النُّزُل، العاشرة ليلاً، وكنت تركت البيت في الخامسة والربع فجرًا، كانت رحلة شاقة ولكنها مليئة بالدهشة، أول وصولي تناولت غدائي مبكرًا إذ يمنع تناول الأكل في منطقة الآثار، جاءت فتاة لا تريد توديع عشرينها وجلست بجانبي، قلت في نفسي هذا الجمال تمتاز به بلاد الشمس التي علمتني الكثير، فثلاثة أعوام فيها (اليابان) كافية لزرع محبتها في الروح. سألتها هل زارت المكان سابقًا، أجابت أنها كانت هناك، وسوف تدخل مرة أخرى بعد تناولها لغدائها. بعد تعارفنا أخبرتني

أنها من مدينة أحلم بالعيش فيها لستة أشهر؛ وهي كيوتو عاصمة اليابان القديمة، والتي لم يمسسها طيران الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية، قضينا وقتًا رائعًا، تحدثنا كثيرًا عن اليابان والسفر، تذكرت تفاصيل زيارتي لمدينتها حين كنتُ أعيش في هيروشيما، التقطت صورًا كثيرة لها وأعطيتها بعض الملاحظات بخصوص التصوير، كانت لطيفة للغاية ولا تمانع إن اخترت طريقًا أو سلالم لنجتازها.

ونحن نتكلم ونستمتع بمنظر هذه الأعجوبة التي ربما من حسن حظّ البيرويين بل والعالم أنها بقيت غير مكتشفة حتى ماضٍ ليس ببعيد؛ لكن عدم معرفتها من قبل الإسبان أدى إلى جهل الناس قاطبة بحقيقتها، فما هذه الأعجوبة، أهي مدينة أم معابد، بمرور الزمن راحت أسطورتها تكبر.

في 24 تموز 1911 الأمريكي هيرام بينغهام عندما كان يبحث عن آثار حضارة الإنكا التي دمرها الإسبان، وبعد تسلقه لجدار جبلي محاط بصخور كثيرة ومغطى مثل بقية المدينة بغابات إستوائية كثيفة، وكان المدخل قد سد بزلزال قبل سنوات طويلة. رأى الجدران وهي مغطاة بالأوراق والمنازل منسقة بعناية مما دل على أن مدينة كبيرة قامت في هذا المكان؛ كانت هذه المدينة المخبأة وسط غيوم كثيفة ذات تنظيم وبناء بديعين، وفيها ثلاث عوائل فلاحية يفلحون المكان، مما يعني لو توخينا الدقة العلمية، وخرجنا من شرنقة المركزية الأوربية، أن المكان كان معروفًا، أي لم يكتشفه وإنما هو مَيّزَ المكان – المدينة، علمًا أنه وجد على أحد الجدران كتابة تخبر أن كاتبها راكب حمار (هكذا)؛ لكن هيرام

بينغهام بيّن علميًّا أهمية ماتشو بيتشو، التي تقع على ارتفاع 2430 مترًا فوق مستوى سطح البحر.

في عام 1983 صنفتها اليونسكو ضمن قائمة التراث العالمي، وهي تحوي شوارع وبنايات وقصور ومعابد بشكل هندسي متطور، أما القنوات المائية فهي متطورة للغاية وفيها دقة عجيبة، إذ إن المياه تنساب منها بمستوى واحد، وهو ما لاحظته في المناطق الأثرية الأخرى المحيطة بكوزكو. إن مئتي بناية في هذه المدينة تجعلها واحدة من أكثر المناطق الأثرية والثقافية في أمريكا الجنوبية، والأحجار الكبيرة التي بنيت بها هذه البنايات، بلا أدوات تثبيت، متراصة حتى إن لا فراغات بينها، وبعض الأحجار تصدر صوتًا مختلفًا حين النقر عليها، وثمة ما يشبه الرفوف الصغيرة قياساتها حسب الذاكرة ما بين 20 – 30 سنتمترًا، إدخال الرأس فيها والصراخ يخرج صوتًا غريبًا وقويًّا.

واصلنا المسير، ونحن نتلفّت ليس خوفًا وإنما استمتاعًا ودهشة بهذه المدينة الأعجوبة التي أصبحت تحت النظر الآن، في أثناء ذلك مرّ من أمامنا زوج وزوجته علمنا أنهما من البرازيل، التقطتُ لهما مجموعة صور وراح يقبل زوجته وأنا ألتقط لهما صورًا بكاميرتهما، وعلى الرغم من أن الزوج يبدو وقد عانق الستين من العمر، عكس زوجته المليئة أنوثة وشبابًا وحيوية، لكن التآلف والانسجام سمة تظهر على سلوكهما. اقترح أن يلتقط لنا صورة أنا في الوسط وزوجته على يميني واليابانية على يساري. بعدها ودعتهما وغمزت له أنك رجل محظوظ بهذه الزوجة، وكانت زوجته تترجم له، وبائن من جوابه وفرحته أنه يعي ذلك فهي تصغره

كثيرًا وذكية فحين ظنّ بأن اليابانية زوجتي أو على علاقة بي، قالت له بإنجليزية واضحة إنه على خطأ فهما (أي أنا واليابانية) يظهر علينا أننا تعارفنا الآن، فأعجبت بفطنتها وذكائها مما جعلني أغمز له مهنئًا.

بعد ذلك التقطت صورًا كثيرة وكان الطقس جميلاً ثم بدأ المطر خجولاً ورويدًا رويدًا توقحت عيناه وصرت أسبح بالمطر، ولكن كنتُ رأيت معظم ماتشو بيتشو، فودعتُ اليابانية مع وعد بإرسال صورها، متمنيًا لها أوقاتًا طيبة، خرجت من المدينة المفقودة كما يطلق عليها وقمة الجبل القديم كما تترجم للعربية، والمطر يزداد ضراوة، فكانت الحافلة التي أوصلتني لمنتصف الطريق، لاستقل حافلة أخرى بعد انتظار بسيط، وعند محطة القطار كدت أركب بالخطأ قطارًا آخر لولا التدقيق؛ تأخر موعد قطارنا وهذه طالما تكررت معي بما في ذلك تأخر الإقلاع في المطارات. بعد وصولنا سيارة أجرة حتى نُزُلنا هذا، خلعت ملابسي التي استنشقتْ عبير المطر فلامسني البرد، وها أنذا احتسي شايًا وأدوّن يومي هذا كي لا يهرب في دهاليز النسيان، وأرجو أن أوفق غدًا بتنفيذ برنامجي كما فعلت أمس واليوم، أشعر بإرهاق كبير، وغدًا يجب النهوض مبكرًا للذهاب إلى مناطق عديدة تحوي آثارًا من حضارة الإنكا، وبعدها أغادر للعاصمة ليما.

مدينة الملوك بلا مطر

ليما عاصمة البيرو لا تعرف المطر، ولا تعنيها الثلوج والأعاصير والبرق والرعد بشيءٍ، صحراء على شفة محيط، ومحيط يتأهب لعناقها، ثمة

أنهار تحاول أن تقترب منها، هو غزل يشبه غزلي وأنا طفل بفتاة كربلائية، كانت فتنتها تذهلني بل حركت فيّ ما لا يجوز لطفل أن يعرفه ويتحرك فيه، فتاة ضاعت في زحام السنين والمنافي، وبقي لون شعرها العسلي الطويل حتى أعلى الركبتين قليلاً في يدي، أتحسسها كلما هزني الحنين لوطن أخشى أن يتلاشى، مرة قلت لها "كنتِ حلمًا فأصبحتِ ذكرى" غضبت مني ولم تعد.

ليما تشبه بغداد، لكن بلا تفجيرات ومفخخات وسيطرات لا حصر لها، فحين دخلت المدينة كانت بيوتها تقول لي أنظر كم أشبه بغدادك التي لا تغادر أنفاسك، بيوتها بحدائقها، لكن الحدائق العامة أكثر، والمتاحف أيضًا، والحريات الشخصية أوسع، وليما فيها شبه من دمشق أيضًا، فهي بلا تلال وجبال كعمان ولكن جبالها ليست بعيدة عنها، أي أنها محصورة بين جبال ومحيط، حين نظرت لجبالها البعيدة تذكرتُ قاسيون، لكن قاسيون نأى كثيرًا عن البحر أو ربما العكس. قِلَّة من النساء مَن لا يرتدين السروال القصير والذي هو عادة أقصر من عمر وردة، والقميص بلا أكمام ويبرز الكتفين مع منطقتي الصدر والظهر. في ليما التي آثار العمارة العربية واضحة في معالمها، تم الحفاظ على المدينة القديمة، ويطلق عليها المدينة التاريخية (الترجمة حرفيًّا من الإنجليزية) لكن هذه المدينة جد صغيرة؛ قياسًا بالمدينة القديمة لكيتو عاصمة الأكوادور التي أسكنها منذ عام 2011.

كاتدرائية ليما

زرتها صباحًا وتقع في الساحة الرئيسية، وهي أول كنيسة بُنيتْ في ليما، وذلك في عام 1540 ميلادية، أي بعد بناء ليما بخمس سنوات، وفي عام 1551 قاموا بتوسيعها، ثم توسيعها مرة أخرى في عام 1622 وهي المرة الأخيرة، ومن مميزاتها تنوُّع العمارة فيها في كل جزء منها مثلاً، عمارة عصر النهضة والعمارة الباروكية والقوطية الإليزابيثية.

أول قتيل لأول انقلاب في أمريكا الجنوبية

فرانسيسكو بيزارو (1475 – 1541) هو أحد مؤسسي ليما في عام 1535، وقبره في الكاتدرائية، حيث قُتل في أول انقلاب في أمريكا الجنوبية، وخشية من أن يقوم الانقلابيون بقطع رأسه ووضعه في الميدان العام، دفنوه في ذات اليوم، ليتم اكتشاف جثمانه النهائي في عام 1977 بعد سلسلة اكتشافات خاطئة نتيجة عمليات توسيع الكاتدرائية، وفي إحدى هذه المرات وجدوا رفات قسيس ظنوه فرانسيسكو بيزارو.

وكان فرانسيسكو بيزارو حاكمًا على جنوب بنما. ذهب إلى كولومبيا ثم واصل إلى جنوب الأكوادور، ليذهب إلى إسبانيا للحصول على موافقة من الملك للذهاب جنوبًا حيث لم يكن يشعر مَن معه بسعادة لتطلعاته، فكان لا بدّ من الحصول على قرار من الملك ليكونوا تحت الأمر الواقع، فتم منحه قوة أكبر من منافسه، فذهب إلى البيرو في قارب يضم 180 رجلاً، ثم تبعه قاربان، وحين رأى الحسد متجسدًا في الأخير وضعه تحت المراقبة، لكنه لم ينجُ من الانقلاب الذي حدث، لأن قادة

الانقلاب ظنوا أن فرانسيسكو بيزارو سوف يقتلهم، فتغدوا به قبل أن يكونوا عشاءه. بعد ذلك شاهدت عملية تغيير الحرس الجمهوري، ليكون متحف قصر رئيس الأساقفة محطتي، حيث الأثاث والريازة العربية التي تذكرني ببيئتي الأولى، ثم زرتُ كنيسة أخرى وهي كنيسة القديس دومينغو، وفيها شاهدتُ- كما في غيرها- المؤثرات العربية في عمارتها، ولوحة تمثل ابنة ملك طليطلة التي ساعدت الجنود المسيحيين. وهذه الكنيسة كما بقية الكناس تحوي رفات الآلاف، ثم جعلت التسوّق وجهتي فتجولت في أسواقها.

في اليوم التالي زرت المتحف الوطني، وهو كتل خرسانية (كونكريتية) لم يتم إخفاء رماديته، وفيه تعرفت على حضارة البيرو، ومن خلال الخزف والفخاريات ومراحلها التاريخية- وبعضها كما في الأكوادور والعراق ومصر وغيرها من البلدان- تشعر بحرفيتها العالية وكأنها صُنّعَتْ في العصر الحديث، ثم شاهدت بالصور والتعريفات معرضًا لحركة الدرب المضيء "سَندَرو لومينوسو" والغوريلا؛ حسب التسمية الحكومية، وكان المعرض يتصف بالمصداقية حيث تَعرَّضَ إلى تجاوزات الحكومة أيضًا، بل تحدث المعرض عن عمليات قتل عشوائي ارتكبتها الحكومة كان من الممكن تفاديها. ثم اتجهتُ على وجه السرعة إلى متحف ليما، لأحضر عرضًا بالصور التوضيحية لتطور ليما وهجرة الأرياف والمدن والبلدات الأخرى إليها منذ الأربعينيات، وكان مصمم الصور والوسائل الإيضاحية- وهو أستاذ جامعي يحمل درجة الأستاذية وكان كتابه وهو دراسة عن تطور ليما ونموها السكاني معه- كان رجلاً كبيرًا في السن، نذر نفسه لمدينته،

وكم تمنيت لو أن لدينا مثلها في كل مدينة من مدننا ليرصد ظاهرة نموها السكاني وخلفياتهم البيئية والثقافية. وكان المتحف مدهشًا بطرق وسائله الإيضاحية، مغطيًّا تاريخ ليما منذ تأسيسها وحتى الوقت الراهن.

متحف الكاتب ريكاردو بالما

كان بيت الكاتب البيروي ريكاردو بالما (7 شباط 1833 – 6 تشرين الأول 1919) الذي قرر منذ سِنّ مبكرة أن يصبح كاتبًا، يحيلني لبيوتنا العربية، هو بيت أشبه ما يكون ببيوت أغنياء العراق وسورية، هذا الكاتب الذي عمل ما بين عامي 1852– 1860 في الجيش محاسبًا، ثم دخل معترك السياسة فعانى النفي في تشيلي ما بين عامي 1860– 1862 ميلادية، وفي 1864 – 1865 سافر إلى أوربا والبرازيل والولايات المتحدة الأمريكية، وعاد للبيرو ليصبح سكرتيرًا للرئيس، وسياسيًّا، ومن ثم سناتورًا، ليتزوج في عام 1876 وليثمر زواجه عن عائلة كبيرة.
وحين غزت تشيلي البيرو في حرب المحيط الهادئ (1879–1883) حطمت القوات الغازية بيته. ولأن القوات التشيلية قامت بسرقة أعداد كبيرة من الكتب وتدمير المكتبة الوطنية، فإن كاتبنا الذي تسلم إدارة المكتبة الوطنية ركّزَ جهوده على إعادة بناء المكتبة الوطنية. شاعر، صحفي، لغوي، مؤرخ، محاسب، بحّار، كتب الكثير من الكتب عن العادات والتقاليد والحياة الاستعمارية، مما يجعل كتبه تعد وثائق لما كانت عليه البيرو قبله وخلال حياته، مما جعله أهم كاتب في البيرو قبل القرن العشرين. وهذا البيت الذي سكنه الكاتب في فترة ما أصبح

مدرسة حكومية ومن ثم في عام 1959 أصبح متحفًا، وساهم الناس في التبرع لهذا البيت– المتحف، ليضربوا مثلاً بالوفاء لوطنهم ولكاتب وَثَّقَ تاريخهم الثقافي، وكانت الكلمات التي استحدثها البيرويون قد أدخلها ضمن اللغة الإسبانية واعتمدت من قبل الأكاديمية الملكية الإسبانية في مدريد.

أهرامات ليما

بعد خروجي من المتحف تجوَّلتُ في محلات بيع الفضيّات التي تشتهر بها البيرو، فهي بلد تلعب الفضة دورها في حياتهم ومعظم هداياهم، وخصوصًا في الأعراس، حيث المواد المصنعة من الفضة كالملاعق والصحون والمزهريات والمباخر وإلخ، ثم تناولت غدائي ووصلت إلى أهرامات ليما بعد سؤال المارة، وبعد دفع الرسوم انتظرت حتى جاءت المرشدة التي كانت لغتها الإنجليزية جيدة ومع ذلك لم تنج من تعليقات بعض أفراد المجموعة التي لم يكن فيها سوى واحدة كانت الإنجليزية هي لغتها الأم، وهي كانت أكثر إنصاتًا لها من الآخرين، وهذه حالة مستهجنة؛ حيث لمست مرارًا أن الناطقين بالإنجليزية كلغة ثانية يستهزئ بعضهم ببعض، كما أنهم أقلّ احترامًا لعقائد الآخرين، وهذا لا يعني أن الناطقين بالإنجليزية كلغة أولى تخلو منهم هذه الحالات ولكنها قليلة وهم عادة لا يظهرونها. عمر الأهرامات ومنطقة الآثار 1600 سنة، كانت منطقة واسعة ولكن تحول ثلثاها إلى بيوت وعمارات، والثلث

الأخير تم الحفاظ عليه والعمل يجري فيه بشكل مستمر، لا يختلف آجرّه (طابوقه) عن آجرّنا العراقي بشيء تقريبًا.

لم تستخدم المنطقة كمدافن من قبل السكان الأصليين الذين كانوا يعبدون إله البحر، ولكن جماعة تالية جاءت بعدهم لتحول الأهرامات إلى مدافن، وقد سكنتها مجتمعات الليما والواري والياشما، وكان الياشماويون يقتلون الضفادع ويقدموها قرابين للآلهة، وبعد أن ترك الواريون المنطقة جاء السكان المحليون وهدموا القبور. وهذه الأهرامات– رغم مساحتها الواسعة نسبيًّا– تُعَدُّ صغيرة قياسًا بأهرامات الجيزة.

ختمت رحلتي بزيارة متحف "أمانو" وهو متحف أسسه ياباني ومازالت أسرته بعد وفاته تقوم بإدارته، تقف أمام جهود هذا الرجل شاكرًا له صنيعه لما قدمه، ليس للبيرو فقط، بل للعالم، متحف وجدت ضمن مقتنياته تمثالاً يمثل عربيًّا، إضافة إلى تماثيل لأعراق شتى تدل على علاقات تجارية لسكان المنطقة منذ القدم مع العالم، جعلني هذا التمثال أتساءل: كم نحتاج من جهود لكشف حقيقة العلاقات التجارية القديمة والتي سبقت دخول الأوربيين للعالم الجديد؟.

عيد ميلادي عند فوهة بركان احتفلت به

بانيوس–أمباتو–بويو 1–4 آذار 2014

السبت 1 آذار زيارة بانيوس وشلالاتها

نهضت في الخامسة صباحًا، وبعد اتمام بديهيات الصباح أي الاستحمام وتناول الفطور واحتساء الشاي الأخضر مع النعناع، ذهبت إلى المرآب الجنوبي الرئيس (محطة حافلات الجنوب) كانت المحطة مليئة بالبشر، فهنا عطلة في يومي الأثنين والثلاثاء، أي أربعة أيام، ولا عجب في ذلك فالناس تسافر، كنتُ مهمومًا كيف سأحصل على بطاقة للذهاب إلى بانيوس، فكانت المفاجأة أن لا أحد على شباك الشركة المختصة ببانيوس، قطعت تذكرة فرحًا، ولكن لابد من سبب وإلا كيف تكون هذه الحشود أمام شبابيك أخرى تؤدي إلى مدن مختلفة، ولم يطل استغرابي وجاء الجواب صاعقًا، "إن بركان بانيوس فعّال الآن" هممت كمن يسخر من حياته وأقداره لينتصر عليها "سأحتفل بعيد ميلادي عند فوهة بركان" وابتسمت.

الطريق هو اربع ساعات ونصف بالحافلة، بحثت عن نُزُلٍ فوجدت بعد بحث قصير، لم أر بركانًا فالجبل يفصل بيننا، وتذكرت مقولة تُنسب للخليفة الباني عمر بن الخطاب، والتذكر نعمة في أحيان كثيرة. رميت حقيبتي وخرجت كان أول عمل أقوم به هو محاولة الحجز لجولة حول شلالات المنطقة، وهي مشهورة بالشلالات. أثناء البحث لاحظت الناس متجمعة على جانبي الطريق الذي يقع فيه مكتب الحجز، حجزت وكنت

محظوظًا أنهم اخبروني بعد عشر دقائق ستنطلق الحافلة، والعشر دقائق في عرف الأكوادور تعني نصف ساعة ربما، وخلال هذه الأثناء بدأ الاستعراض فالناس متجمهرة من أجل هذا الاستعراض إذًا. شاهدت القليل منه والتقطت مجموعة صور.

كانت الشلالات مبهرة حقًّا والجولة تستحق الكثير وليس 6 دولارات فقط، مدتها ثلاث ساعات ورأينا شلالات عديدة وختمناها بأكبر شلالٍ، طريق الوصول إليه كان مرهقًا للغاية، والعودة أكثر إرهاقًا لأنها صعود، والوقت أدركنا، لكن أبت حياتي وأقداري إلا أن تختم يومي بقدر بيني وبينه ربما أقل من ثانيتين، كنت مسرعًا ولكن فجأة توقفت لأمر ما، ثم واصلت، كان عليّ أن أعبر تحت شجرة هي أقرب للجسر، فهي أفقية ولكن مرورنا تحتها لا يضايقنا لأن ارتفاعها أكثر من مترين، وفجأة في أثناء العبور سمعت صوتًا، وأنا أواصل المسير رفعت رأسي، كانت بقية أفعى أعني أن أفعى عبرت على الجذع الممدّد كشهيد تركته المعارك خلفها، لكنه ينبض بالحياة، بكل تأكيد الأمر لم يستغرق سوى لحظات ربما، أفعى مرت قبلي ولم أر سوى جزء يسير من ذيلها أو نهايتها. ابتسمت لقدري وقلت مرت بسلام.

بركان وأفعى ولكن شلالات مدهشة وجمال طبيعة يحتاج للتأمل كثيرًا هذا هو عيد ميلادي، وأظنه يتفق مع طبيعة حياتي العجائبية، حين تختلط الدموع بالدهشة والفرح والجوع والتخمة المؤقتة والرفاه العابر، بالسفر والتنقل والصعود والهبوط حد التناقض، ولكن يبقى المحرك لحياتي هو الحلم النابض بالحيوية، والذي كلما زرت بلدًا أو مناطق أو

قرأت كتابًا أو أصدرتُ كتابًا شعرت أن حلمي يكبر وينمو حتى إنني أشعر أحيانًا بعجزي أمام حلمي هذا وكأني كسول وفاشل.

سمعت من ابن عمتي الذي أعدم في آذار (رمضان) **1991** مع شقيقه وابن عم لنا، أن شلالاً مميزًا في شمال العراق يمر الناس من تحته ولكن ماءه لا يسقط كبقية الشلالات بل بين دقيقة وأخرى، اليوم لاحظت شلالاً تمر تحته السيارة، فثمة حفر في الجبل تكفي لمرور سيارة، لكن في الوقت نفسه ثمة شلال.

شلالات في كل مكان والأنفاق التي مرت فيها السيارة لم أر مثلها، فهي توحي أنها ليست أنفاقًا من صنع البشر كي تمر الحافلات والناقلات والسيارات والعربات ولكن بطبيعتها ووجود الماء والصخور توحي أنها طبيعية وتَدَخّل الإنسان ليس كبيرًا.

أمبــاتو

كان يوم أمس مميزًا أيضًا، حضرت استعراضًا مدهشًا في مدينة أمباتو وتقع شمال بانيوس، هو استعراض الزهور والفواكة (كرنفال الزهور والفواكه) وكان تصميم السيارات والعربات مدهشًا حيث الفواكه وأنواع الزهور جعلت من عربات الاستعراض لوحات فنية طبيعية، تتربع فتاة حسناء هي ملكة المنطقة أو الجالية، ففي هذا الاستعراض كانت مشاركة الجاليات الموجودة على أرض الأكوادور، منها الاوكرانية والبولندية والارجنتينية والبروية (تترجم خطأ بالبروفية وتلك لعمري كارثة تعبر عن جهل المترجم وعبوديته للغة الانجليزية) وكان المفروض أكتب تفاصيل

الاستعراض وكيفية ممارسة الناس لفرحهم بهذا اليوم ولكن صحتي اجبرتني على النوم المبكر نتيجة لوقوفي لساعات تحت شمس الأمازون المحرقة وأنا أصور الاستعراض. لكنه والحق يقال أحد أهم ما حضرت من الاستعراضات في حياتي لاسيما واني حضرت الكثير ليس في الاكوادور فقط بل في دول كثيرة عشت فيها أو زرتها.

بعد ذلك زرت مناطق متعددة من أمباتو وكانت أهم محطة هي بيت أهم كاتب في أمريكا الجنوبية ألا وهو خوان مونتالفو الذي توفي في باريس في سنة **1889** عن **57** سنة ونقل جثمانه بعد أكثر من أربعين سنة ليتم تحنيط جثته وجعل بيته متحفًا، ويستحق هذا الكاتب المميز تفاصيل أكثر حيث يعد مفخرة الأكوادور.

نهضت مبكرًا بوهج يتألق في القلب، حيث ما أصبت به أمس مجرد إرهاق ليس أكثر، ذهبت إلى محطة الحافلات وكنت محظوظًا أن الحافلة انطلقت بعد دقيقتين من صعودي إليها، علمًا أنني حجزت مساء أمس حال وصولي من أمباتو، ولم يشغلني عن الحجز وينسيني إياه ما حدث لفتاة من مشهد لا يحدث إلا في بلدان الفساد الإداري، فقد حملت إحدى اللّصات حقيبتها ومضت وما كان من الفتاة التي تعرضت للسرقة إلا أن صرخت بصوت عالٍ بها فقامت السارقة بترك الحقيبة ومواصلة المسير وكأن أمرًا لم يحدث، أشار بعض المارة على الفتاة أن تذهب للشرطي فهو يبعد عدة أمتار، ولكنه لم يحرك ساكنًا، والبلدان التي لا يحرك الشرطي ساكنًا فيها هي بلدان يقودها الفساد الإداري، ولكن ذلك لا ينفي ما في الأكوادور من الحدائق والمتنزهات حتى في

المناطق النائية جدًّا وفي قلب الأمازون أو في ركن منسي من المحيط الهادئ، ما يسرّ النفس والنظر ويشغلهما بالتحسر على جهلنا بأهمية الحدائق والمتنزهات وملاعب الرياضة.

خوان مونتالفو كاتب الأكوادور الأول وسرفانتس أمريكا الجنوبية

ولد خوان مونتالفو في الثالث عشر من نيسان عام 1832 ميلادية، في أمباتو – الأكوادور، وأمضى معظم حياته التي استمرت 57 سنة متنقلاً في المنافي بسبب حبه ومناداته بالحرية لبلاده ووقوفه ضد طغاتها.

انتقل إلى كيتو لدراسة القانون ليصبح محاميًا ولكنه تركها، واضطرته مواقفه للعيش في جنوب كولومبيا المحاذية لبلده الأكوادور، وباريس التي توفي فيها في السابع عشر من شهر كانون الثاني 1889 ميلادية، وبعد أربعين سنة تم جلب جثمانه لبلده ليتم تحنيطه وتحويل بيته إلى متحف، كما تم الاحتفاظ بالنعش الذي تم تشييعه فيه في باريس.

يعد سرفانتس أمريكا اللاتينية رغم قلة كتبه. ولد لعائلة كبيرة فلديه بضعة عشر أخًا وأختًا. ترك الجامعة بعد عامين دراسيين ليعود إلى مدينته أمباتو، ويتعمق بفهم الأدب والفلسفة، ثَقَّفَ نفسه ذاتيًّا من خلال القراءة والسفر. عاش في فرنسا ما بين 1857 – 1861 و1881 – 1889.

كتب مجموعة من القصائد ورواية وبعض المسرحيات الد رامية، ولكنه أصبح مشهورًا بسبب مقالاته الصحفية ضد الفساد والظلم والطغيان، وقد أصدر جريدتين.

حين تأملت النعش والجثة المحنّطة والصور وأدواته وعموم المتحف، تألمت لأن لدينا الكثير من المبدعين إلى الآن يعانون من الإهمال، ففي حياتهم تم تجاهلهم أو على الأقل عدم منحهم ما يستحقون، وفي وفاتهم لا وجود لشارعٍ يحمل اسمهم ولم يتم طبع أعمالهم الكاملة، ناهيك عن حقوق الطبع لهم في حياتهم وللورثة بعد وفاتهم. مُتحف يعدّ من معالم المدينة وأحد مراكزها السياحية والتجارية أيضًا؛ عانيت من شرود ذهني وأنا أتجول في المتحف، وراحت تنهمر أسماء أعلام العراق، ماذا لو كان لكل علم له متحف ومكتبة ملحقة، لانتشرت لدينا المتاحف والمكتبات وأصبح عددها بعدد النخيل، ونضيف اسمًا لأسماء العراق، ألا وهو بلد المتاحف والمكتبات، وحين هممت بالخروج استوقفتني السيدات الْمُسِنّات واللواتي كما اعتقد عملهن تطوعيًّا في المتحف، فهنّ يُقدمن خدمة للمدينة وبالتالي للأكوادور كلها، فتخيلت عشرة آلاف متحف ومكتبة في العراق، وهنا لا يشعر المتقاعدون عن العمل بالضجر والسأم ويبقى الجميع يخدم بلاده حتى سن متأخرة، هل قلت عشرة آلاف متحف ومكتبة؟ سوف تكون مردوداتها تكفي لبناء مشاريع جديدة كل عام؛ ولكن ما هي إلاّ أحلام شاعر يتمنى أن يرى بلاده التي تفتخر بأول مكتبة في العالم تنتشر فيها المكتبات والمتاحف والحدائق.

بـويـو

وصلت بويو في التاسعة والنصف صباحًا أي الوقت استغرق ساعة وربع الساعة، بحثت عن محل للمبيت وفي رابع فندق استقر رأيي على القبول، تركت حقيبتي الرئيسية وحملت الحقيبة السوداء وفيها كاميرا ودفتر وقلم وقنينة ماء وسترة مطرية، وذهبت إلى حديقة النباتات، استأجرت سيارة بثلاثة دولارات، ودفعت خمسة للدخول والتنزه، وهي حديقة خاصة قام بها شخص مع عائلته، حيث استطاعوا من تحويل أرض أقرب للجرداء، والجرداء هنا بمعناها الأمازوني، وإلا فلا مكان هنا بلا نباتات، وزرعوها، في عام 1980 بدأ العمل بحديقة النباتات، وكانت النتيجة مثلاً تكاثر الطيور والحشرات ولقد رأيت أكثر من ألف صورة لأنواع عديدة من الحيوانات والزواحف والحشرات، وحين انتهيت من القاعة المخصصة للصور وتسلسلها من عام 1980 إلى 2007 وما أن ابتدأنا الجولة حتى لاحظنا القردة الصغيرة على الأشجار استطعت على الرغم من تشابك الأشجار وسوء كاميرتي أن التقط صورة جيدة أو أكثر، بعد الانتهاء من جولتنا بدأ المطر يتكاثر ثم رمى بثقله كعاشق ظمأ لعناق الأرض.

كانت رحلتنا مليئة بالمعرفة والمتعة والإعجاب، فهذه العائلة خلقت مكانًا مميزًا للغاية، سوف أحاول أن أكتب أكثر عن هذه الحديقة ومميزاتها، فهي تستحق فعلاً، وكان معنا ضمن المجموعة عائلة علمت من ربّ الأسرة أنه إيراني ولد في طهران ونشأ في الأحواز، فأردفت أنه في سنة 1847 تمت معاهدة بين الدولة العثمانية وايران كانت من

نتائجها اعتراف إيران بأن السليمانية جزء من العراق وأملاك الدولة العثمانية، خضوعها قبل هذا التاريخ للعثمانيين ولوالي بغداد بالذات، وأن الأحواز وعبادان والمحمرة ضمن الدولة الايرانية، وهو يحمل الدكتوراه في طب الأسنان ويعيش هنا في الأكوادور في العاصمة كيتو منذ 37 سنة وبيته وعيادته قرب بعضهما عند متنزه كارولينا وهو بهائي الديانة وتحدثنا عن الطاهرة قرة العين، وأردف أنها أول مَن قاد ثورة النساء للمطالبة بحقوقهن.

بعد وصول سيارة الأجرة، ذهبت للمدينة وكان استعراضها قد انتهى توًّا أي أن بانيوس احتفلت باستعراضها يوم السبت وأمباتو يوم الأحد وبويو اليوم الأثنين، لم أشاهد الاستعراض ولكن شاهدت عودة الناس وغالبيتهم من الصبايا والشباب مليئة أجسادهم بالطحين والأصباغ فهم يمزحون ويرشون على بعضهم الطحين ومادة بيضاء مبللة موضوعة في رشّاش. وكانت ملابس الجميع قصيرة للغاية الشباب صدورهم وظهورهم عارية والصبايا ملابسهن بالكاد تغطي الأجساد التي تلونت بفعل الأصباغ. تناولت السمك في مطعم صيني وهي عادتي أعني تناول السمك في المطاعم، وتكرر معي أمر جلب رز مليء باللحوم وخصوصًا لحم الخنزير، فأوضحت للعامل أني طلبت رزًّا أبيضَ، بعد ذلك ونتيجة للمطر الذي يأبى التوقف برهة، صعدت في إحدى الحافلات لكي أطوف بالبلدة التي تعداد نفوسها 35 ألف نسمة.

حين عدت بحثتُ عن مقهى لتناول الشاي، كان تعجبي الإيجابيّ من صاحب المطعم، سألته فقال بكل سرور أي نوع من الشاي تريد، حين

عرف رغبتي، ذهب لجاره البقال وجلب شايًا فاستغربت لأن من عادة الأكوادوريين أن لا يفكروا بهذه الطريقة فهو يعتذر ويضيع عليه زبونًا، وحين جلب الشاي أخبرته أن رائحة سمك في محله فأسرع باشعال خمسة أعواد بخور ووزعها على المحل وهذه صفة أخرى لا يتصف بها الأكوادوريون، فاضطررت لسؤاله هل أنت أكوادوري؟ أجاب: نعم, فأخبرته ما لمسته منه عكس البقية، وحين أردت أن أدفع الحساب أكّدتُ عليه أنني وضعتُ كيسَين وليس كيسًا واحدًا، تبسم وقال لا تهتم، حتى إنني شعرت به وكأنه يقول كما العرب هنيئًا مريئًا.

بعد انتهائي أمس من تدوين يومياتي، خرجت من مقهى الشابكة (الانترنيت) مرغمًا لأن دوامهم شارف على الانتهاء ويجب غلق المحل، قمتُ بجولةٍ بحثًا عن فنجانِ قهوةٍ اختم به يومي، وقضيت وقتًا جيدًا مع صاحبة المطعم ثم جاء زوجها الذي انجليزيته كانت جيدة فسهلت الكثير من الأمور. بعدها قررت المشي لبعض الوقت قبل الذهاب للفندق والنوم، وحسنًا ما فعلت، فحين وصلت الفندق ما أن بدأت بتغيير ملابسي استعدادًا للنوم، حتى تكالبت الأصوات على الهدوء، وامتشق الضجيج لعنته وعانيت ما عانيت لا نوم فالكل يصرخ، حتى شعرت بالندم أنني رفضت الغرفة التي وجدتها مظلمة بعض الشيء في أول فندق دخلته بعد وصولي بويو، بقي الناس بين صراخ وضجيج، ودخل التلفاز على الخط، فلم أعرف النوم، ولكن ما زاد الأمر سوءًا، هو حين كنت في حديقة النباتات، أرتني مرشدتنا وهي زوجة صاحب الحديقة – الغابة، نباتًا قالت هذا له مفعول الثوم، وهو خير ما يستخدم

مع السمك أثناء الطبخ، كانت ورقة كبيرة استأذنتها بالاحتفاظ بها، ووضعتها في حقيبتي، لم انتبه أن الحقيبة كانت بجانب سريري، ورائحة الورقة نفاثة أكثر من الثوم، حتى بدأ الدمع الحارق يتسلل إلى عينيّ، غيرت مكان الحقيبة، وذهب الأطفال والكبار إلى أسرتهم يغطون في نوم عميق، إلاّ التلفاز كان صوته يشبه بيانات الحرب العراقية الإيرانية، فكانت ليلتي بلا نوم، سوى سويعة يتيمة في بداية الصباح.

أتممت إجراءات الصباح (حمام وحلاقة وفطور وإلخ) وذهبت إلى حديقة الطيور، وهي مشروع خاص تحوي طيورًا من أماكن مختلفة من العالم، لا أنكر متعتي أثناء التجوال مع طيور أراها لأول مرة وأخرى رأيت أنواعًا متعددة منها، ولكني تمنيت أمنيتين الأولى أن تكون الحديقة مخصصة للطيور في الأكوادور لأنه أكثر بلد في العالم يحوي طيورًا (اكثر من ألف ومائة نوع)، والثانية أن يكون لنا في كل مدينة عراقية حديقة نباتات وحديقة حيوانات وحديقة طيور، كنت أرى الأطفال والمراهقين وكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة جنبًا إلى جنب وأتحسر عليك يا وطني، فهذه بلدة تعداد نفوسها 36 ألف نسمة، وتقع في الأمازون وفيها ما رأيت إضافة إلى حدائق عديدة ورب قائل يقول إن كثرة المطر تساعد، أقول صحيح ولكن المطر لا يقوم بتزيين الأمكنة وتصميم حدائق عامة وجزرات وسطية وحدائق جانبية تبهج الناظر.

مما لفت نظري أن صخورًا قاموا بتلوينها مع بعض العمل عليها لتتحول إلى طيور أو حيوانات، تزيد من جمالية المكان. كان التصوير ليس بالمستوى المطلوب لأنهم وضعوا أقفاصًا وحواجز فلا يمكن رؤية الطيور

إلاّ من خلال الشبك، على الرغم من ذلك حاولت قدر المستطاع , لو خرجت ببعض الصور الجيدة فهذا مدعاة لغبطتي. بعد ذلك اكتريت سيارة أجرة إلى مركز يانا كوتشا لإنقاذ وتأهيل الحيوانات، وهو مركز تساعده وزارة البيئة والشرطة في إيجاد الحيوانات المريضة والمرمية أو النادرة والمسروقة، وفيه شاهدت عدة أنواع من الببغاوات، أولها كان ببغاء مريضًا جلبوه للمركز وبعد أن شفي طاب له المكان وأصبح أليفًا للغاية بحيث اقتربَ مني لمسافة أقل من نصف متر، وكان بالإمكان لمسه ولكن لمس الحيوانات ممنوع.

قرية فاطمة في بويو- 3آذار

حين أقلتني الحافلة إلى آخر نقطة في بويو، حيث من عادتي التعرف على المدن التي أزورها ليس من خلال متاحفها ومعالمها فقط, وإنما من خلال الصعود للحافلة حتى آخر الخط، ثم محاولة تغيير الخط مرات عديدة، أي جهات المدينة الأربع. وصلت الحافلة إلى آخر نقطة في بويو حيث غابات الأمازون، وكانت قرية فاطمة، بحديقتها المميزة تنظيمًا وزهورًا، قد أعادتني إلى مدينتي ليس لأن نسبة كبيرة من أناثها يحملن هذا الاسم فقط، بل لأن أول قصيدة نشرتها في جريدة (جريد العراق) وحصلت على مكافأة النشر، كانت بعنوان (ابتهال لفاطمة) وكان ذلك عام 1987 ميلادية، وفاطمة هذه كان بياض بشرتها مع صفاء عجيب، كم وددت لو أن أيامي تحمل بياض وصفاء بشرتها، لكن النقيضين لا يجتمعان.

فاطمة القرية ذكرتني بفاطمة الحب القديم، تذكرت تناسق جسدها، ذلك الامتلاء في الكاحل والذي يزداد صعودًا كأنه الشموخ مبتل بندى الوردة، هذا الذي افتقده هنا، إذ تمتاز الكثير من الأكوادوريات بضخامة الثديين والعجيزة مع نحافة غير محببة بالساقين، نحافة تجعلك تتذكر نساء البحر المتوسط وأوربا تحسّرًا. لكن قرية فاطمة أبت إلاّ أن تدهشني ليس باسمها وحديقتها فقط وإنما بسرب من الصبايا، أمازونيات لسن برماح وحراب وإنما بأنوثة وغنج ودلال، ملابسهن أقصر من عمر وردة، بل عمر ندى، ونثيث السماء يزداد بريقًا على شعرهن الملامس لما بعد آخر نقطة من ظهورهن، رحت أتأملهن وكأني أمام مجموعة من الهلال خصيبيات، فجمالهن لا يختلف عما عليه في الهلال الخصيب، كربلائية، نجفية بيروتية دمشقية حلبية لاذقانية عَمّانية حيفاوية ويافاوية نابلسية خليلية بصرية حمصية وأخيرًا بغدادية، هكذا رأيت هذه الفتيات الأنيقات بضحكاتٍ لا تشوبها طعنات طغاة وغزاة ولحى متسخة، كما هناك حيث أرض الكتابة والأبجدية والقوانين والأديان، ماضٍ يجرك عنوةً لظلام لاعب النرد فيه بلا يدين.

تمتاز فاطمة، أعني القرية وليست تلك التي سرقتها القصيدة مني حين تواطئ خجلي وخرابي، لأخرج من بلادي بألبوم ذكريات وعشرة دنانير أردنية استلفتها من عمي ولم أعدها له، نعم القرية التي كل شيء فيها كان يثير دهشتي، حدائق بيوتها وأرصفتها، شوارعها المشعة بسواد أسفلتها وهو يتعطر بالمطر الخفيف الذي لا يختلف عن مطر الصيف حيث لا بلل يصيب العابرين، لقد مات المغني ومازال المطر يتسكع بصحبة

فتيات فاطمة ليثير شهوة المارين عوضًا عن البلل. أعود لمتنزه القرية، يتوسطها محاطًا بالبنايات من جهاته الثلاث، والجهة الرابعة حيث الطريق العام. معظم النباتات مما ينبت في مناطق الأمازون، والزهور حمر ووردية وصفر وبنفسجية بعدة أنواع منها المائل للزرقة ومنها المائل للحمرة بتدرجات عديدة، وثمة نباتات يمكن زراعتها في أكثر من طقس، وتصميم المتنزه يوحي بأنه منتجع للاستجمام الوقتي أعني من عناء النهارات والوحدة والعمل، مُغرٍ للجلوس ورفيقك الكتاب.

فاطمة ليست بحاجة لحوانيت، فدقائق معدودة بالحافلة تصل لبداية البلدة حيث مجموعة من المحلات والمطاعم والبقاليات ومنها المطعم الصيني الذي تناولت فيه وجبة غدائي، كالمعتاد سمكة مع رز أبيض، لكنهم جلبوا لي رزًّا مخلوطًا بلحم الخنزير، وهي حالات تكررت معي، وعدا ذلك فالمطعم لا بأس به وكان طبخ السمكة سلقًا ولكن ثمة براعة في سلقها ونكهة. ولا يعني هذا أن القرية تخلو من بعض الدكاكين لبيع ما تحتاجه فاطمة من ضروريات. وقبل الوصول إليها بأكثر من كيلو مترين ثمة مركز لمعالجة الحيوانات والطيور الجريحة أو التي بحاجة لعناية خاصة، والطريق من البلدة للقرية مبلّط، بل يمكن القول إنها لا تختلف عن أي قرية أو مجمع سكني حديث ومعاصر في أرقى دول العالم، جعلتني أتذكر أحياء بغداد والفيضان الذي تكَلّم عنه الناس بسخرية سوداء، بينما الأمطار التي تهطل على فاطمة سنويًّا أضعاف ما تهطل على العراق عمومًا.

كالدَرون - 12 نيسان 2014

لم يتبق على مغادرتي الأكوادور منتقلاً للعيش في أفريقية سوى 67 يومًا، وعليه أحاول أن استغلها لمشاهدة أكبر عدد ممكن من الأمكنة التي تحيط بالعاصمة، مع وضع برنامج لزيارة أماكن سبق وأن زرتها ومنها محمية ياسوني في قلب الأمازون والتي تعد أكثر منطقة تنوع بيئي في العالم. ولكن هذه المرة لن أجرّب التوغل في غاباتها وأتعرض للتيه كما حدث سابقًا. بل سوف أتوغل في نهر ياسوني العجيب، راجيًا أن تكون تلك النباتات المتحركة وسط الماء لا تقف حاجزًا كما حدث في المرة السابقة، وحرمتني من التوغل في النهر الذي يتميز عن غيره أن طيورًا لا حصر لها تؤدي صلواتها على ضفتيه كأنها مجاميع منشدين في كنيسة. هذه الصلوات التي تركت أثرها في النفس بحيث كلما أتذكرها يحضر ذلك العاشق اللغز من مدينتي والذي كان إذا جنّ الليل تطرب النفوس لشجى صوته وهو يبث لواعجه من فوق إحدى النخلات فتصل إلى بيوت المدينة القريبة من هذه البساتين، لتكون سامر الناس في صيف العراق الطويل، ولكن هذا العاشق الذي لم يتمكن الجميع من معرفته وبقيَ لغزًا تتداوله الألسن في مدينتي ومع اللغز كان يكبر الخيال ليتحول إلى أسطورة. انتظره الناس كالمعتاد ليشجيهم بصوته وكلماته، فلم يَطُل عليهم ومرت الأيام لتكون فرصة لكل مَن يجد ذاته في نسج القصص، حتى كأنه ليس أكثر من وَهْمٍ تلَبَّسَ المدينة وصحت فجأة لتخترع قصصًا لإثباته، منها أنه وجد مقتولاً.

إحدى البلدات التابعة لكيتو الكبرى، وتبعد عن العاصمة ساعة واحدة، وهي مشهورة بتحفيات زينة صغيرة الحجم، تُصنّع من الطحين مع مادة حافظة، كالأقراط والحيوانات والطيور وما يخص الديانة المسيحية وأعيادها وإلخ، اشتريت بعض النماذج من هذه التحفيات، ثم بعد تجوال امتدّ لساعة زرت سوق البلدة، تسوقت فالمكان هو الأفضل لشراء الهدايا من قبل السائحين، أو ممن هم مقيمون مثلي ولكن على سفر دائم. سوقها شعبيّ حيث العربات و"البَسْطات" والخيم البسيطة التي تحمي الباعة من المطر.

أتذكر في زيارتي الأولى للمكان، كنتُ أنتظر دوري للركوب في الحافلة والذهاب لمنطقة قريبة، تشتهر ببيع الملابس الجلدية، وإذا بشاب يوجه رأسيّةً (لكمة برأسه) لوجه شاب آخر كان واقفًا مع زوجته وطفله، فسقط الشاب الضحية على الأرض، فما كانت من زوجته إلاّ هجمت على صاحب اللَّكْمَة، وجاءت الشرطة فقيدوه وهو لم يبد مقاومة مطلقًا؛ الشعور الذي انتابني حينها أن تلك اللَّكْمَة الرأسية وُجّهَت لي، لماذا لا أدري، هل هو جنوحي للسلام وهروبي من بلدي كي لا أتورط بأي عمل عنف، أم أن اللاوعي اشتغل عندي فكانت حادثة قتل أبي التي دمّرت حياتي حاضرة، وربما حضرت معها يوم كنتُ مع قريب لي مازح أصدقاء له فتحوّل المزاح إلى عنف حقيقي حاولت أن أكون حمامة سلام بينهم فتعرضت لضربة قبضة على إحدى وجنَتَيّ بقيتْ ترتجف لأكثر من أسبوع.

حَملتُ ما اشتريته معي وعدتُ أدراجي إلى كيتو على أمل البدء برحلة لمعانقة ياسوني عبق الأمازون، وإحدى أكثر مناطق العالم دهشة. لم أجد صعوبة في المواصلات، فمن حسنات الأكوادور، هو تَوفّر المواصلات ورخص ثمن أجرة النقل فيها، وهي في ذات الوقت أسواق، ففي كل موقف للحافلة، يصعد مجموعة من البائعين والبائعات للفواكه والحلويات والمشروبات والهدايا، والأقراص المضغوطة كالغناء والموسيقى والأفلام المسرحيات و...إلخ، والصور الدينية والسياحية وبعض هذه الصور مزدوجة، فيكون النظر إليها مختلفًا من زاويتين، وإني لأعجب لهؤلاء كيف بإمكانهم التوازن وهم يبيعون بضائعهم أثناء مسير الحافلة، وسائقو الحافلات يقودونها بسرعة كبيرة مع وجود زحمة السير والمنعطفات الكثيرة والتوقف المفاجئ نتيجة دق جرس الحافلة من قبل أحد الرّكّاب؛ لكنها العادة والاعتياد، وأكل العيش مرّ كما يقول المثل المصري المُعَبّر بحكمة وحنكة ودقة طالما عرفَ بها الشعب المصري.

غدًا الثالث عشر من نيسان، سوف تكون رحلتي عند خط الإستواء تقريبًا، لمنخفض بولولاهْوا الزلزالي، ولمعبد الشمس الذي يليه، فقبل الوصول لبولولاهْوا بعدة مئات من الأمتار، يشمخ معبد الشمس.

الحجُّ إلى معبد الشمس

الأحد 13 **نيسان** 2014

لم تكن عبادة الشمس غريبة عليّ، فأنا سليلها، منذ بزوغ نجم سلفي العظيم حمورابي، حين قدّمَ شرائعه للإله الشمس. فهي تستفزني كي

أبحث عن كنه هذه العبادة العتيقة، واليوم الأحد الرابع عشر من نيسان 2014 زرت هذا المعبد الكبير والذي مررت به سابقًا ولكن زيارتي له لم تتحق إلاّ اليوم.

المعبد دائري، ويقع على مرتفع كما هي معظم المعابد، والتي ترمز للسموّ وليس لأمر آخر، والسيطرة تدخل من ضمن السموّ. قطعت تذكرة ودخلت، تأملت تلك النصب والتماثيل، كما كانت فرصة أن أتأمل جمال فاتنة كانت تستعرض أنوثتها وصاحبها يقوم بتصويرها، خجلت أن أصحح له هفواته بالتصوير، وربما ذلك الشَّعر الأسود الطويل بعينين سوداويتين وقوام ممشوق، ذكرتني بقصائد الشعراء العرب عن العيون السود والخصر وما قاله الأعشى الكبير في معلقته:

غرّاء فرعاء مصقول عوارضها .. تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحلُ

اعتقد أن هذه الأنثى نَشَّطَتْ ذاكرتي وإذا بأغلفة المجلات وتلك الصور لنساء يملكن مواصفات نعتقد أنها موجودة في الإعلام فقط، لكنني رأيتها اليوم أمامي، نابضة بجمالها العربي، الجمال الذي اختلط بعشرات القوميات والأعراق ليكون مميزًا، وحين انتقل العرب للعيش في أمريكا الجنوبية نقلوه معهم. لا يمكن أن تكون هذه المرأة إلاّ عربية، تمتمتُ وأنا أسمع صوت الدليل السياحي ينادي لبدء الجولة داخل المعبد.

دخلنا المعبد وهو ليس بعيدًا عن خط الإستواء إن لم يكن على الخط مباشرة، ودائرية المعبد تعود لأنه يمثل الشمس على الأرض، ويتكون من طوابق عديدة تتخلله فتحة في الوسط، تسمح للشمس بالدخول، وفي وسط أرضيته حفرة دائرية، كما يحوي المعبد على تمثالَي الإمبراطور

الإنكيّ وزوجته الكيتوية (الأكوادورية)، مما ذكرني بزواج الملوك والشخصيات المهمة لحفظ الأمن والاستقرار ونجاح المُلك، فمن خلال هذا الزواج أصبحت الإنكا جزءًا أصيلاً من تراث الأكوادور، والأسبان غزاة، بينما المدة بينهما لا تتجاوز الأربعين سنة.

قمنا بتأدية بعض الطقوس التي كانت تمارس في المعبد قبل دخول المسيحية، ومن ثم حاول أكثر من شخص أن يوقف بيضَةً على مسمار، هذه التجربة لم أمارسها هنا في المعبد، ولكني مارستها عند خط الإستواء سابقًا، ونجحت في ذلك أكثر من مرة، أمّا اليوم فلم ينجح أي شخص في ذلك، لم أحاول أن أجرّب لأني جربت سابقًا كما ذكرت. لكن مما لاحظته أن شعور الذكورة في العالم اللاتيني يشبه حتى في هذه النقطة مقابله العالم العربي، فالرجال حاولوا استعراض مهاراتهم أمام حبيباتهم ولكن خيبتهم كانت مدعاة لي كي أقارن بين العقلية اللاتينية والعربية.

دخلنا مكانًا يباع فيه الحجر الأخضر، وهذا الحجر يملك قوة تجعل حامله أكثر تماسكًا، وقاموا بعد الشرح بإجراء تجارب معنا، هو أن يقف الشخص على قدم واحدة وتحاول الفتاة أن تثني يده، تنجح ببساطة حين لا يحمل الحجر الأخضر، بينما تفشل حين تكون اليد الأخرى تمسك بالحجر. جربتها بنفسي واشتريت حجرًا مثقوبًا جعلته قلادة لي، أتفاءل بها لا أكثر. ثم تجولت في المكان ورأيت ما يحويه المعبد وما يشير لحياة القوم قبل دخول الأوربيين للبلاد، فهنا الأساطير والحكايا لا حصر

لها، ولم يعد خافيًا على أحد, الاستفادة الكبيرة التي جناها الأدب العالمي من خلال المنجز الإبداعي لأمريكا الناطقة بالأسبانية.

حين ودعت المعبد كانت الشمس تقترب من الغروب، وسبب تأخري هو ذهابي أولاً لمنخفض بولولاهْوا الزلزالي، وهو منخفض كبير وعميق فيه مزارع كثيرة ويحوي فنادق ومطاعم وكان يحوي مدرسة، وصلته صباحًا وهبطت لقعره، وتمشيت في القعر – السطح، راقبت طيورًا وصورتها، لم أتوقف خلال الهبوط والمسير ومن ثم الصعود سوى مرة واحدة لتناول غدائي، واستغرق مني هذا الأمر ساعات عديدة، أكلت معظم النهار، وكانت هذه زيارتي الأخيرة لمنخفض بولولاهْوا، وفيها شاهدت كما سابقًا، عجائز أحنى ظهرهم الزمن يقودون حميرهم صعودًا من قاع المنخفض، وكأنهم شباب لم يبلغوا العشرين بعد.

لم يمنعني معبد الشمس من التفكير وأنا في الحافلة التي أقلتني للعاصمة كيتو (المكان ضواحي كيتو) أن أفكر بالتلاميذ الصغار وهم يصعدون من قاع المنخفض كي يذهبوا إلى مدارسهم بعد أن تم غلق المدرسة التي في بولولاهْوا، ثم عودتهم يوميًّا، ولا أظنهم يختلفون عن بقية التلاميذ في المجتمع الزراعيّ، حيث العمل في الحقل مع العائلة، وبما أن المجتمع الأكوادوري مجتمع طبقي فمثل هؤلاء سيبقون رغم أنوفهم أبناء بررة لطبقتهم، لا يتجاوزونها لطبقة أعلى. هنا كل شيء حتى المشاعر يجب أن تكون من طبقتك.

معانقة ياسوني نبض غابات الأمازون

الأمازون – كوكا .. الأربعاء 16 نيسان 2014

هذه المرة الأولى التي أطير فِيها للأمازون وَمِنْ حسنِ الحَظِ كانتْ السماء تنفضُ عريها مِنْ الغيومِ ، ممَّا سَنحَ للغاباتِ أنْ تغتسلَ بأشعةِ الشمسِ، وانعكسَ ذلك إيجابيًّا على متلهف مثلي لرؤيةِ المناطقِ التي طالما توغلت فيها والتي سَأعيد الكَرّةَ مرة أخرى وَلكِنْ هذه المرة في أعماقِ نهري نابو وياسوني، هذا النهر الذي كتبت عَنْه سابقًا أرجو أنْ يخدمَني الحظ خلالَ الأيامِ القليلةِ القادمةِ ولا يكونَ المطر سيد المشهدِ ومرجعيتهِ الأولى.
كانَ الطيران عمومًا لا بأسَ بهِ باستثناءاتِ بسيطة كانتْ الطائرة ترتجُ وكأننا نَصْعد ونهبط في أراضٍ متموجةٍ أنهكَها القصف.

غابات الأمازون تشبه سجادة خضراءَ مليئة بالزخارفِ وبالأخضرِ وتموجاتِه كلها، ولا يقطع هذا المَشهد سِوى نهرٍ هُنا وآخرَ هناكِ، ومستنقعاتٌ أعادتني للأهوارِ. تساءلتُ كَمْ عددِ الأنهارِ التي مررتْ بِها وقطعتْها وبعضَها لا أدري هَلْ أقول لعبَ الحظّ مَعي أمْ هي الخبرة والحذر والتشبث بالحياةِ اجتمعتْ لتنقذني مرارًا مِنْ سقوطٍ أو خطرٍ.

لكنْ هذه الرحلات وهذا التوغل ومراقبة الطيورِ والحيواناتِ والحشراتِ والأشجارِ وفي الوقت ذاته التماهي مَعها هي مِنْ أكبرِ الدروسِ التي تعلمْتها في حياتي وبهجتها لا تختلف عن قراءةِ أمهاتِ وروائعِ الكتبِ.

مرة نصحني أحد المدرسين أن أكفّ عن التدخين، وأخبرني عَنْ صديق له ترك التدخين ووضع في بيته صندوق توفير كما الأطفال ويوميًّا يضع فيه مبلغ الدخان الذي كان يستنشقه. بكلِ احترام كنْت أنصت إليه

ولكني كمراهق كنْت أعارضه تمامًا، معتبرًا وأنا المراهق المهووس بالشعرِ أن التدخينَ جد ممتع لاسيما أثناءَ الكتابةِ، كنتُ اعتقد أن التدخينَ يساعد على الإلهامِ. بعدَ سنوات طويلة تركت التدخينَ نهائيًّا، ورحْت أجدُ في القراءةِ والتأملِ والتجربةِ المتفردةِ والسفرِ النوعيّ ملهمات أكثر مِنْ التدخينِ. خطرَ هذا ببالي وأنا أدون هذه الكلمات, ربما لأني أنهيْت أغلب مقالتي عَنْ شاعر إمريكي تعرفْت عَليه في وَلْنِغْتُن وهو مِن المبدعين الكبارِ، بلا دخان وحانات وكؤوس ترتمي بأحضانِ كؤوس، وحصلَ على مفتاحِ المدينةِ وهو أكبر وسام تقدمه مدينته الأمريكية للمتميزين من أبنائِها، وهو الذي تركَ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية منذ عامِ **1975** ونشرْت لَه دور نشر لَها اسمها وكتبَ عَنه كثيرًا، وأمسياته الشعريةِ تجلب الجمهورِ الواعي، وقد يصل العدد إلى مئتي شخص.

السفر النوعي: وهو عدم ركوبِ الحافلاتِ السياحيةِ والمبيتِ في فنادق درجة أولى والتجول في مناطق الآثارِ والمناطق المميزةِ مع مجموعة سياحية ودليلها إلا اضطرارًا، إنما ركوب الحافلات المحليةِ والاقترابِ مِن نبضِ الشارعِ والسوقِ والكادحين, فَمِن الأماكنِ التي أحرص على زيارتِها والتجولِ فِيها هي الأسواق والمقاهي والمطاعم الشعبيةِ وأرجو أنْ يسعفني الحظ وأكتب بِتفصيل عَنْ هذه التجربة وبالذاتِ رحلاتي في حافلات بسيطة لساعات طويلة بعضها يزيد على عشرِ ساعات ولكنْ كانتْ أطول رحلة لِي هي **22** ساعة و**45** دقيقة وكانتْ مِنْ أمتعِ الرحلاتِ في حياتي بَلْ كانتْ توغلاً حقيقيًّا في إحدى طبائعِ المجتمعِ التي لا يمكن أنْ أفهمَها إلاّ مِن خلالِ رحلات كهذه.

رحلةٌ في نهرِ نابو.. الخميس 17 نيسان 2014

قبلَ السابعةِ صباحًا قفزْتُ للقاربِ، نَعمْ قفزْت ولَمْ أصعدْ، وهذه هي حياة الأمازون. كانَ الزورق كَما في المرةِ السابقةِ وكَما في جميعِ زوارقِ المناطقِ النائيةِ التي تعيش أقرب لحياةِ بدائيةِ ، مليئًا بالموادِ الغذائيةِ على الرغم من صِغَرِه ولكنْ كنا أكثر مِنْ خمسين شخصًا. في القاربِ دجاج وفراخ ورز وبصل وأنواع مختلفة من الخضروات، جَعَلَتْني أتساءل هَلْ سكان أعماق الأمازون يَحتاجون لخضرواتٍ؟ ما المانع مِنْ زراعتِها في مناطِقِهم؟ طوال الرحلةِ التي استمرتْ ما يقارب مِنْ عشرِ ساعاتٍ، كنتُ أراقب الكلب الوحيد الجالس أمامي بهدوء عجيب، كأن على رأسه الطير؛ وكانَ بَعض المسافرين يَحملونَ أمتعة كثيرة للغايةِ وَلَهم الحق فِي ذلكَ, فَليسَ بإمكانِ هؤلاءِ السفرِ إلى بلدة كوكا للتسوق. وَلكنْ أكثرهم تلكَ السيدة التي مِنْ ضمنِ أمتعتِها طبّاخ وأوان كثيرة وعِدّة أكياس مِن الرز وكيس بصل أظنه بحدودِ الخمسين كيلو غرام. وواضح أنها تفتتح مطعمًا في قريتِها، وهي قرية فِيها ثكنة عسكرية مما نتجَ عَنْ توقفِنا فِيها إلى صعودِ جندي يسأل عَنْ هوياتِنَا رجالاً ونساءً، وزميل لَه يُصَوّر كل شخص يقدم هويتَه، أعْني التصويرَ أثناءَ التفتيشِ.

فِي منتصفِ الطريقِ توقفنا عِندَ مطعم وتناولْنا الغداءَ. المطاعم الموجودة لا تختلف كثيرًا عَنْ مطاعم الأماكن النائية والتي تفتقر للنظافة والتصميم الجيد. عكس ما نجدَه في مطاعم نيوزلندية واسترالية وبريطانية نائية تناولْت طعامي فِيها، ولكنها تَشترك بأنها جميعًا تفتقر للنظافةِ التي تربيْت عَليها في بيتِنا أو تلكَ التي وجدْتها في اليابان. اليابانيون نظيفون للغايةِ

ومرتبون، والغربيون مرتبون ولكنْ بِلا نظافة كَما هي شروطها عندَ اليابانيين وما تربيْتُ عليه. وسوء الترتيبِ والنظافةِ منتشرة في جنوبِ شرقِ آسيا، وفي بلدان عربية عديدة مِنها العراق الذي تراجعَتْ مستويات النظافةِ فِي مطاعمِهِ بشكل كبير وخطير حينَ تَمَ زجَ الحرفيين وعمالَ المطاعمِ في الحروبِ كبقيةِ الشعبِ العراقي فصَارَ الاعتماد على العمالةِ الوافدةِ وهي غير حرفية عادة.

بسببِ تزاحمِ الجميعِ تأخرْت بالحصولِ على طعامي مما أجبرني على سؤالِ صاحبةِ المطعمِ علبة لوضعِ بقيةِ طعامِي وتناوله في وقت آخر بالقاربِ؛ وأثناء تناولِي قامَ الشخص الجالس بجوارِي بمدِ يديِه للنهرِ وغسلهِما ووجهه وإذا بكمية من الماءِ تساقطَتْ في طعامِي مِنْ يديِه ووجِهه. تساءلْتُ هل أكملُ أم أتوقّفُ؟ تذكرْتُ الحياةَ العسكرية وتناولْتُ طعامِي على مضضِ كأني في ثكنة. فأنَا في نهر وطريقِي سيمتدُ لساعات ولا يمكن الحصول على طعام حتى وصولنا آخر قرية أو بلدة في الأكوادور.

نهاري انقضى في القاربِ تقريبًا. في نهرِ نابو الكبيرِ ولأننا في موسمِ الأمطارِ فالنهر لَمْ أرَ فيهِ إلاّ القليل مِن الجزرِ عكس المرةِ الماضيةِ حينَ ذهبْت وكانَ موسم الجفافِ. ونابو يصبّ في نهرِ الأمازون. ومازالت تشغلَني عمليةَ المصبِ هذه. ففي الخريطةِ نَرى نهرًا واحدًا، والظاهر أن نهرًا آخرَ يلتقي بنهرِ نابو ويكونان نهرَ الأمازون الشهيرِ ولست متأكدًا. كَما هو الحال مَع نَهرَيْ تَيْنا وميساواجي، فمِنَ التقائهما يتكون نهرَ نابو. والناظر للخريطةِ يعتقد أن نهرَ تَيْنا هو نهر نابو نفسه. وعليهِ سوفَ يبَقى

أحد الأحلامِ التي ثمة صعوبة بالغة في تحقيقِها هو رؤية النقطةِ التي يصبّ فيها نهر نابو بنهرِ الأمازون.

لَمْ يكنْ الطريق صعبًا ولا مملاً، فتغيّر الطقس بينَ ماطر وغائم جزئي، وبينَ شَمس اغتسلَتْ بنهر سريع الجريانِ حمل مَعَه غابات متيبسة متفرقة كأن بينَها عداوة مبيتة. وقرى متناثرة على ضفتَي نابو الذي لا يبالي عادة بِمَنْ يتعمدون بِه كأنهم صابئة مندائيون مِنْ سكانِ بطائحِ العراقِ ومستنقعاتِه، حَمَلوا صرخةَ ذاكَ الرأسِ الجليلِ الذي طلبَتْه غانية كَي تَرقص فرحًا. كنْت أرى عراقيي الأريافِ وَهمْ يَضمّخون حيواتهم بنهرين طالَما أنجَبا حضاراتٍ ومآسٍ.

وصولي لبلدةِ روكو فْوَرْته (الصخرة القوية) الجديدة كانَ في الخامسةِ وثلاث دقائق عصرًا. مَا إنْ وصلْتُ حتى ذهبْت للنّزلِ الذي سكنْت فِيهِ فِي كانون الأول 2012 وتسلمْتُ نفسَ الغرفةِ. تركْتُ أغراضِي وخرجْتُ لرؤيةِ البلدةِ الصغيرةِ والتي هي أقربُ للقريةِ أو المستوطنةِ. اتجهْتُ لمكانٍ لَمْ أذهبْ لَه سابقًا, وقادتْنِي خطاي إلى ثكنةٍ عسكريةٍ فأوقفوني مستفسرين، وضّحْتُ الأمرَ وعليه تركوني أواصلُ مسيرِي وسطِ معسكرِهم أو ثكنتِهم حتى آخر نقطة. في طريقِ العودةِ لاحظْتُ الملاجِئ، التي ذكّرتني بسنواتِ العسكرية. كانَ الظلامُ يلقي بعباءتِهِ، وهاجمتْني كلابٌ لَمْ تكنْ شرسةَ كثيرًا وهل للشراسة مكان مع هذه الطبيعة الخلابة والتي تعدّ من أجمل وأثرى الأماكن في العالم؟

فِي وسطِ البلدةِ حضرْتُ فعاليَة دينية لجماعة مسيحية، كنتُ أجهلُ مذهبَها رأيْتُ بعضَهم يضع ركبتيَه على الأرضِ ووجهه على الكرسِي،

يصلّي وينشجُ كأنه يبكِي, بعدَ فترة وجيزةٍ مرَتْ راهبة كاثوليكية وكأنَّ الأمر لا يعنيِها، فعلمْتُ أن الجماعةَ تنتمِي لمذهب آخر. مِنْ خلالِ الوقتِ خَمَّنتُ أنهم المذهب الإنجيلي. بقيْت لِنصفِ ساعة أو أكثر وغادرْتُ أبحثُ عَن الكنيسةِ الكاثوليكية لأحضرَ بعضًا مِنْ مراسيمِها فغدًا جمعة الآلامِ، الجمعةُ العظيمةُ. كانَتْ الكنيسة أكثر ازدحامًا مما توقعت، ولكنْ لَمْ تبدأ بَعدْ والناسُ كانوا يتقاطرون عَليها. ترَكْتها وعدْتُ للنُزُل لأنَّ وقتَ العشاءِ قد حان.

سوفَ أتوغلُ غدًا فِي نهرِ ياسوني وأقضِي ليلتِي هناك. إنها فرصةٌ ثمينةٌ أنْ أتمتعَ وأشاهدَ مناطقَ مِنْ هذا النهرِ المميزِ بجمالهِ وروعتهِ وطيورهِ وحيواناتهِ، ففيهِ الدولفين الورديّ (الزهريّ) ومجموعة مِن الحيواناتِ المميزةِ مِنها سلحفاةٌ حسبَما علمْتُ أنها في هذا النهرِ فقطْ ولا أدري مدى دقّة هذا الكلام؛ وطيور مهاجرة. أعلمُ أن المبيتَ في أعماقِ الأدغالِ فِيه خطورةٌ ولكن أتمنى أن مغامرتي تمرّ بسلام وعليهِ فتدوينِي ليومياتِي سيكونُ يومَ السبتِ مساء حسبَ توقيت الأكوادور.

معانقة ياسوني نبض غابات الأمازون..

الجمعة والسبت 18-19 **نيسان** 2014

تحركْنا صباحًا في العاشرةِ و42 دقيقة. حملنا مؤونةَ يومين وليلة هو مَا ستستغرقه رحلتنا فِي أعماقِ الحياةِ البريةِ. بعدَ مضي دقيقة واحدة على انطلاقتِنا أوقفتْنا دوريةٌ عسكريةٌ وأجبرتْنا على الذهابِ إلى نقطةِ التفتيشِ. قمْنا بالتسجيلِ وواصلْنا مسيرنا، فِي بوابةِ محميةِ ياسوني الوطنية سَجّلنا

أيضًا، وسمعْت دليلَنا وهو صاحبُ القاربِ وصاحب النُزُلِ، يقول للموظفِ إننا سوفَ نعود عصرًا. هكذا أمور منتشرة في أمريكا اللاتينية ومناطق متعددة مِنْ الشرقِ الأوسطِ وجنوبِ شرقِ آسيا. ثمةَ عدمِ ثقة بينَ الشعبِ والحكومةِ مِنْ خلالِ الكذبِ ومحاولةِ الخداعِ؛ الطريق لا يزيد على ميل واحد عبرَ نهرِ نابو مِنْ محطةِ وقوفِ القاربِ وتُسمى في العراقِ الشريعةَ، وحتى مَصبّ نهرِ ياسوني في نهرِ نابو الذي بَعدَ أنْ يقطعَ مسافةً طويلةً يصبّ في نهرِ الأمازون. حين معانقةِ نهرِ ياسوني لنهرِ نابو وذوبانِه وتماهيه فيه، بالإمكانِ مشاهدةِ ذلكَ البرزخِ الذي ذكرَه القرآن الكريم فِي قوله تعالى "بَينهما برزخٌ لا يبغيان" وهذا البرزخ على شكلِ منحنيات هندسية جميلة تأسر الناظرَ إليها ويزيدها جمالاً، هو رقص الدلافين الوردية والبنية؛ وهي تسرح وتمرح بينَ حدودِ الأكوادور وحدودِ البيرو. ليزدادَ الجنود كَما السائحين وأهل القرى بهجة فَهي مما يوحّدُ ويفرح، أعْني يُوَحّد الجميعَ بمشترك إنسانيّ فطريّ.

واصلْنا المسيرَ على مسافةِ عدةِ ساعات، أحيانًا تحتَنا ماءٌ وفوقَنا ماءٌ وعلى جوانبِنا الماءُ. فنحنُ في موسمِ الأمطارِ، وهي هُنا تختلفُ عن جمهوريةِ لاوس فِي جنوبِ شرقِ آسيا. ففي الأخيرة أكثر مِنْ ثمانين بالمائةِ من الأمطارِ تسقطُ ليلاً، أمّا هُنا فتهطل صباحًا وحتى بعدَ الظهرِ. ولكنْ عصرًا يكون الطقس مشمسًا أو غائمًا جزئيًّا عادة. والأمطار ليلاً ليسَتْ كثيرة بَلْ يمكن رؤيةَ النجوم بشكلٍ واضحٍ, والغيوم أضعف مِنْ أنْ تحجبَ نجومًا وكواكبَ ناجاها العشاق وسارَ على هدي القمرِ شعراء ظنّوا أنَّ حبيباتهم علّقنَ فتنتهن في قلبِ السماءِ. يمتاز نهر ياسوني بأنه

قلب محمية ياسوني وهذه المحمية هي الأكثر تنوعًا وثراءً بيئيًّا في العالم. ليسَ على شفتيهِ آلاف الأنواعِ مِنْ الأشجارِ والنباتاتِ فقطْ، بَلْ إن أنواعًا مِنْ الأشجارِ لا تعيش إلاّ فِي داخلِه مما يُعطِي الانطباعَ أننا فِي مستنقع فَمِنَ الصعبِ رؤية ضفتَي النهرِ. وهذه الأشجار والنباتات هي مأوى لعدد كبير مِن الطيورِ وأنواعًا من القِرَدَةِ والحيواناتِ الأخرى وآلافِ الأنواعِ مِن الحشراتِ. أيْنَما تلتفِت ترى طيرًا وتسمع تغريدة وتمر أمامَ ناظريك الفراشات، حمرًا وصفرًا وزرقًا وذاتَ اللونين وأكثر. أزرق محاطٌ بشريط أسود أو أسود مُنَقّط بالأبيضِ، والألوان بتدرجاتِها.

صعوبة التصوير

نتيجة لتشابك الأشجارِ وجدْتُ صعوبة في التصويرِ، وكذلِكَ حركة الطيورِ التي لا تعرف الاستقرارَ ابتهاجًا بالطبيعةِ وتنوعِها، ومَن هذا الذي يعرف الاستقرارِ في محميةِ ياسوني. كلُ شيء يجذبك إليه. بَلْ كلُ شيء يجذب كل شيءٍ، تتعانق الطبيعة بمفرداتِها وتتقابل وتتشابَك وجدًا، وتتحد حلولاً لتنتجَ سحرًا يعجز عَنه هاروت وماروت. فسحرة بابل كَما سحرة فرعونَ, الكلّ يرمِي سحرَه مستسلمًا أمامَ سحرِ ياسوني ونهرِهِ. معَ هذهِ الصعوباتِ ومعَ كاميرا ليسَتْ احترافية، حاولْت بذلَ ما استطعْت إليه سبيلاً، على الرغم من كسلِي ودهشتِي أمامَ حركةِ الطبيعةِ ورشاقةِ تنقل الطيور بينَ الأشجارِ مِنْ جهة إلى أخرى وكأنها تسير مسرعة على الماءِ فطيرانها يكاد يلامس الماءَ لولا فسحة مِنْ خَجل تظهرها الطيور خشيةَ التعري بِلا تراتيل أمامنا؛ إضافة لِحرصِي على عدمِ الإفراطِ بالتصويرِ

حفاظًا على بطاريةِ الكاميرا، فأنا فِي ملكوتِ الدهشةِ ولا أدري في أيةِ لحظة يبرز منظر يستحق التصوير، على الرغم من أن كل جزء وكل زاوية في المكان هي لوحة تفننت الطبيعة برسمها.

بعدَ ثلاثِ ساعات وصلْنا إلى المكان، دلفَ دليلنا بالقاربِ وسطَ أشجار كادَتْ تعيقنا أو تترك نكهةَ غضبِها في أجسادِنا. ترجلْنا وإذا بِه مكان قالَ الدليل "سنعدّه ومن ثم نواصل المسيرَ، وحينَ نعود مَع إرسالِ النجوم رسائل للعشاق سنتناول عشاءَنا ونهجع إليه". ساعدْتَه ومساعده في ترتيبِ المكانِ وتنظيفِهِ. كانَ مساعده وهو قريبٌ لَه مِنْ جمهورية البيرو، يتدرب على حرفةِ المرشدِ السياحي. ومثل غالبيةِ المناطقِ الحدوديةِ فِي العالمِ ثمة عوائل لَها أقارب فِي الطرفِ الآخرِ مِن الحدودِ, ومَا حدثَ في الأكوادور أنها فقدَت حوالي ثلثَ أراضيِها فِي الحربِ أمامَ جارتها البيرو، فقامَ بَعض السكانِ بالنزوحِ إلى الجانبِ الأكوادوري الجديدِ وبقى القسم الآخرِ في الجزء القديمِ أي البيرَوي الجديد فتحولوا مِنْ مواطنين أكوادوريين إلى بيروَيين.

بعدَ إعدادِ خيمتي وترتيب المطبخِ والأدواتِ التي استخدمناها كانَتْ من الطبيعةِ، لَمْ يَقومَا باعدادِ خيمتِهما وضعَا الأعمدةَ التي علَيها يتم نصب الخيمةِ وَجَهَّزا طاولة سريعة لتكونَ مطبخًا، نظفْت مَعَهما الأرضَ. لكني كنْت أشعر بتأنيبِ الضميرِ وأنا أراهما يجهلان ماذا يعني احترام البيئةِ، فقطع الفروعِ يعني أن الشجرةَ بإمكانِها النمو أكثرَ، ولكنْ قطع الشجرةِ هذا هو المحزن. ثمةَ مسألة تخص تربةَ الأمازون، إنها ليسَتْ خصبة بَلْ رُبَما يستغرب الكثير كيفَ تكون تربة الأمازون تفتقر للخصوبةِ مَع غزارةِ

الأمطارِ وتساقط أوراق الأشجارِ وأغصانها وفروعها بَلْ تساقط الكثير مِن الأشجارِ وموت الكثيرِ مِن الحشراتِ والحيواناتِ والطيورِ وقبلَ ذلِكَ مخلفاتِها، وكل هذا سماد يغذي التربةَ، لكنْ هذه هي الحقيقة المرة. إن نموَ النباتاتِ جدّ بطيء وقطع الأشجارِ يعني قدَ يحرم جيلنا والذي يليِهِ مِنْ مشاهدةِ الأشجارِ الجديدةِ حينَ يصبح ارتفاعها أكثر مِن عشرة أمتار، وسُمك الجذعِ ضخمًا. وعليهِ فهذه منطقة تخص مستقبلَ البشريةِ كلها، والآن أخطبوط الشركاتِ النفطيةِ يريد ابتلاعَها، وفي المقابلِ لَمْ تقفْ حكومات العالمِ المتقدمِ والثري مَعَ شعوبِ هذه المناطقِ لِمنعِ التنقيبِ عَن النفطِ ووضعِ برامجِ توعية لدى السكانِ المحليين بضرورةِ الاعتناءِ بالبيئةِ مَعَ مشاريعِ مساعدة لتطويرِ حياتهِم وجعلهم ليسوا بحاجة للنفطِ. هذا الجهل هو ذاته في العراقِ، بَلْ ربما في العالمِ العربي والمنطقةِ عمومًا، نحن شعوب لا نعي أهمية المساحات الخضرِ، وتأثيراتِها على المجتمعِ، في مجالين حيويين لاسيما وهما الصحة والراحة النفسية التي تشيعها هذه المساحات.

تعرضْت لارتطامِ ركبتي اليسرى بحافةِ القاربِ بقوة، مما نتجَ عَنه ألم قوي، فجلسْت فِي مكانِي في القاربِ أتلوى مِنَ الألمِ على أمل أنْ يستكينَ في الساعاتِ القادمةِ. واصلْنَا مسيرَنا والطقس ما بينَ ممطر ومشمس وتدرجات ذلك، رحْت استنشق هواءَ المنطقةِ بعمق وأحاول أنْ أحتفظَ بكل لقطة ومنظر، فهذه فرصتِي الأخيرة والتي ربما لَنْ تتحققَ ثانيةً لِي مدى العمرِ. أنا فِي مكان أتمنى أنْ أعيشَ فِيهِ لِشهور طويلة ولكنْ ليسَ أمامِي سوى ساعات وأغادره نهائيًّا، لأقتات على ما تختزنه ذاكرتي

التي جعلتها بإصراري أنْ تعملَ بكاملِ طاقتِها، وأنا أردد بيتَ الشعرِ الذي كانَ عنوانًا لِحياتي:

تمتعْ مِنْ شميمِ عرارِ نجد فما بعدَ العشيةِ من عرارِ

عدنا مساء قبيلَ الغروبِ، بعدَ أنْ قطعَنا مسافات شاسعة في نهرِ ياسوني الذي يذكرُّني بالأهوارِ العراقية، هذه الأهوار التي كلّما حاولْت زيارتَها لَمْ أتمكنْ ولكنِي شاهدْت أفلام وبرامج عدة عنها.

بعدَ أنْ ركنّا القاربَ قمْنا بإعدادِ الطعامِ، أشعلْنَا شموعًا وعلى ضوئِها تناولْنَا عشاءَنا، وَمِنْ ثم القهوةِ وَمَعَ أصواتِ حشراتِ الليلِ وبعضِ حيواناتِهِ، كانَتْ سهرتنا. بعدَها دلفْت إلى خيمَتِي الصغيرةِ وأقفلتها عليّ كي أنامَ، لكنّني لَمْ أعرفْ النومَ بشكلٍ جيدٍ، عانيْت كثيرًا مِنْ قسوةِ الأرضِ تحتي، وتلكَ الأصوات التي تمنيْت لو بإمكانِي تركَ فراشِي غيرِ الوثيرِ، والخروجِ بنزهةٍ في ليلِ غاباتِ الأمازون، لرؤيةِ الحشراتِ والحيواناتِ التي تطلق هذه الأصوات؛ لكنَّه ليلٌ سلاحه الأناكوندا وما خُفيَ كانَ أعظم، يجب عدم التهوّر أكثرَ ممّا يجب.

عدْتُ وجسدي يحتفظ بِمَا تركَتْه الحشرات الكثيرة مِنْ ذكريات عَليِهِ. ربما بعض هذه الذكريات سيحتفظ بِها جسدي مرغمًا لمدةِ شهرٍ أو أكثرِ. كَمَا تركَتْ هذه المغامرة وشمًا في ركبتي اليسرى لا أدري متى يزولَ فالألم وعلى الرغم من مرورِ أكثرِ مِنْ 15 ساعة عَليِه فهو يعربد فِي نبضِ القلبِ. لكنني أحمل متعةَ تحقيقِ حلم طالَما راودني وهو المبيت في الحياةِ البريةِ لأهم وأثرى محمية في العالم. حتى المنام الذي لم أتذوقه كانَ نتيجة لأصواتِ الطيورِ والحشراتِ بَلْ والحياةِ البريةِ وهي

تصلي صلاةَ الليلِ أمامَ السماءِ أولاً، وثانيًا ما تركْتَه الأرض التي لا يفصل جسدي عَنها مَا يكفِي لِيحميه مِنْ وعورتِها وصلابتِها فَكانَ اقتسام الألمِ بينَ أضلاعِي كَمَا يوزّع طاغية سفّاح كالذي شردنِي وملايين مِنْ بلادِي، ظلمه على مواطنيهِ بالتساوي فهو ظالم في كلِ شيء إلاّ في الظلمِ فقدْ عدل.

كوكا..الأثنين 21 نيسان 2014

مِنْ أكثرِ الأمورِ المفرحةِ فِي تحقيقِ حلم ما, هو تحقيقُه بأقل الخسائرِ. كانَتْ رحلة الأيامِ الماضيةِ ما يميزها عَنْ بقيةِ رِحلاتِي لغاباتِ الأمازون وأكرر غابات الأمازون وليسَ نهر الأمازون الذي لَمْ أرَه. إنها رحلة تضمنَتْ المبيت على أرض وسطِ أعماقِ الأمازون وفِي أثرى منطقة بيئية في العالمِ. تحوي أكثرَ مِنْ عشرةِ آلافِ حشرة. وَلَمْ يكن النوم على سرير، أو فراش وثير أو حتى على فراش سميك، لا شيءَ يفصلني عن التربةِ الرطبةِ الوعرةِ سوى فَرشةٍ سمكها الموبوء بداءِ النحولِ منحَ تعرجات ووعورة الأرضِ الفرصةَ لتصيبَ أضلاعي، فَلَمْ أنَمْ ليلتي وخرجْت بآلام اعتبرتها نتيجة لممارسة رياضة وتمارين لياقة بدنية بعدَ طولِ انقطاع. وهذه حالة أحاولُ أنْ انتصرَ فِيها على الألمِ وكثيرًا ما أنجح. فثمةَ أمورِ تجبركَ الحياة على الإيمانِ أو الادعاءِ بِها لتخففَ مِنْ عناءِ ما تتعرضَ لَه. لكنْ كيفَ أنجح بتوهّم لسعاتِ حشرات بعضُها لَمْ يرَ بشرًا والدليل أنها ارتكبَتْ حماقات لَمْ أرَ حشراتِ المدنِ والأريافِ ترتكبها. فكانَتْ تهجم على النارِ ليسَ نار الشموعِ الأربعةِ التي خففَتْ الظلمتين علينا. ظلمة

الليلِ وظلمة الأشجارِ الكثيفةِ فقطْ وإنما نار الطبخِ. هذه الحشرات مازالَتْ لسعاتِها ماثلة فِي جِلدِي ولكنْ أكاد أجزم أن مقامَها لَنْ يطولَ أكثرَ مِنْ أسبوعٍ بالكثيرِ. ولكنْ هَلْ سيضمحل ألَم ركبتي اليسرى في ذاتِ الفترةِ؟

لَمْ أنَمْ ليلتي الثانية، أشعر بإرهاق أتمنى أنْ يساعدَني للنومِ بعمق وإزاحة التعب عَنْ جسدِي. ذهبْت للسريرِ متأخرًا ليلةَ أمسِ، وَلَمْ أنَمْ، حَلمْت أحلامًا عجيبة أحدها استخدمْت فِيهِ القوة وأنا رجلٌ مسالم طوال حياتي وأؤمن أن استخدامَ العنفِ دليل ضعف وإساءة كبيرة للإنسانِ، والردّ في كل الحالاتِ يجب أنْ لا يتجاوزَ الكلامَ والصمتَ والتجاهلَ أبلغ قوة، وهو ما فعلْته أمامَ مَنْ أساءوا لِي واتهموني اتهامات بعضها مضحك للغاية.

نهضْت مبكرًا فأنا أصلاً لَمْ أنم بعدَ تغييرِ ملابسِي ذهبْت للقاربِ، الذي انطلقَ فِي الخامسة والربع فجرًا. واستغرقَ وصوله لبلدةِ كوكا 12 ساعة و11 دقيقة بالضبطِ. بعدَ الحجزِ في الفندقِ الذي تعامَلْت مَعه ثلاث مرات سابقة، ذهبْت لمحطةِ الحافلاتِ وحجزْت لكيتو. اليومَ كانَ المطر أقل مِنْ يومِ الذهابِ إلى الحدودِ مَعَ جمهورية البيرو ومحمية ياسوني. متعة الإنهارِ (على وزنِ الإبحارِ وعذرًا للغويين) تكون أجمل حينَ يكون العدد أقلّ، وقاربنا كانَ مليئًا، بأكثرِ مِنْ ستين شخصًا.

نهر نابو يذكرنِي بشطِ العربِ، ولكنْ حسبَما ذكروا لَنا أن نهرَ الأمازون حينَ تقف على إحدى ضفتيهِ لا ترى الضفةَ المقابلةَ لسعتِهِ وأصدقهم القول لأن نهرَ نابو يصبّ في نهرِ الأمازون، وهو نهر واسع للغاية.

صادفتني الكثير مِنَ الطيورِ فِي طريقِ العودةِ لكوكا. ولكنْ كثرة الطيورِ في نهرِ ياسوني وغاباته تجعل ما رأيناه اليوم وعلى امتدادِ اثنتي عشرة ساعة وأحد عشرة دقيقة لا شيءَ بَلْ مُجَرَّد أعداد ضئيلة، ففي نهرِ ياسوني سمعْت جميعَ أنواعِ الصفيرِ والزقزقاتِ والتغريداتِ، بَلْ ثمة أنواعِ تشبه صفيرًا طالَما سمعته مِنْ قبلِ الشبابِ والمراهقين في العراق، واستغربْت كيفَ إنه يتطابق مَعَ تغريدةِ نوعٍ مِنْ الطيورِ.

العودة إلى كيتو .. الثلاثاء 22 نيسان 2014

لَمْ يكنْ طريق العودةِ مِنْ كوكا إلى كيتو سهلاً. كانَ عَلينا الصعود حتى 2840 مترًا فوقَ مستوى سطحِ البحرِ. كانَ الطريق ملتويًا فمَا أنْ تنحرف الحافلة شمالاً حتى تبدأ بالانحرافِ يمينًا. لكنْ غناء الشلالاتِ وتجمهر الطيورِ عليها حتى خِلتُ أنها كانَتْ تصفق لهذه الشلالاتِ الغريبةِ. تساءلْت مَعَ نفسِي مَنْ سيصدقك لو أخبرْتَ عَنْ هذا الأمرِ؟ وَهَلْ صدَّق العرب وغيرهم، ثناءَ المؤرخين الأغريق والرومان على ثرائِهِم؟ لكنهم طبلوا لكذبةٍ اخترعَها أو أضيفَتْ على ابنِ خلدون مَنْ أن العربَ لا يعرفون المدَنِيّةَ وجبلوا على تخريبِ البلدانِ. وهم مَنْ عرفَ الكتابةَ قبلَ ألفِ سنةِ على الميلادِ كما عرفوا بناءَ المدنِ والقوانين والأنظمةِ. وكان هيرودوت مصيبًا حينَ أطلقَ على الملكِ سنحاريب ملك العربِ والآشوريين. أي أنه قدمَ العرب على الآشوريين.

كانَتْ رحلتِي مدهشة فعلاً، ولا أنكر أنني دائمًا أحاول أنْ أجعلَ مِنْ رحلاتي مليئةً بالدهشةِ والمعرفةِ وزيادةِ الخبرةِ . أمس أحصيْتُ ما تمكنْتُ

مِنْ لسعاتِ الحشراتِ فوجدتها 87 لسعة، حتمًا ثمةَ لسعات لَمْ أرَها أو أنّها اختفَتْ. لا أدري متى ستختفي جميعًا ، لكنْ بعضها مازالَ ماثلاً بكاملِ وجعهِ كَمَا أن ركبتِي اليسرى لَمْ تتحسنْ كثيرًا. أما الإرهاق فأنا أكتب مِنْ مكانٍ عام لأن الشبكةَ مفصولة في البيتِ، وأشعر بإرهاقٍ واضحٍ حتى إنني أفكرُ بمغادرةِ المكانِ الآن والذهاب مباشرة لشقتي الصغيرةِ، وأخذ قسط من الراحة والتفكير في الشهرين القادمين وهما ما تبقى لي هنا، ويجب استغلالهما لزيارة المزيد من الأماكن.

يوم في كيتو.. السبت 26 نيسان 2014

بعد إتمام مراسيم الصباح التقليدية، أي الاستحمام والفطور، كسرتُ أهم فقرة في اليوم وهي احتساء الشاي الأخضر بعد تناول الفطور مباشرة. لم انتظر الماء يغلي، فأطفأت الطبّاخ وفي شقتي جهازان للطبخ الأول كهربائي والثاني غازي، الأخير نادرًا ما استخدمه. ذهبت لموقف الحافلة المزدوجة ويُطلق على هذا النوع من المواصلات تسمية (أكوفِيّا) ويمتاز أن طريقها وسط شارعين مما يجعلها أسرع من بقية المواصلات وقت الذروة.

دخلت في المدينة القديمة إلى أحد محلات طب الأعشاب، وكان مليئًا بالأعشاب الطازجة والزيوت، وبصفة شخصية لم أر أعشابًا طازجة في محلات العطارين عندنا بهذه الكثرة مثل ما هنا، فالكثير منها باقات تشبه تلك التي نتناولها يوميًّا. قامت سيدة كبيرة بالعمر نسبيًّا وهي صاحبة المحل، بإجراء طب أنديزيّ، أي الطب الشعبي للسكان الأصليين.

ولأهميتها بالنسبة لي على الأقل سأشرحها بالتفصيل: سألتني أولاً أن أدخل لعمق المحل فهناك ما يشبه المنزع، أعني غرفة تغيير الملابس الصغيرة جدّا كما في محلات بيع الملابس. دخلت خلفي وقالت بلهجة آمرة ولكن لطيفة: "اخلع" صعقتُ، أجبتها عفوًا هل تعنين ملابسي العليا؟ بل والسروال أيضًا أجابتني بجدية واضحة. هنا عليّ أن أشكر السفر والترحال والعمر، فلو حدث معي هذا قبل عشر سنوات ولا أقول قبل عشرين سنة لتعرقت وأحرجتُ، لكن لا يعني أنني لم أشعر بالإحراج والخجل، ولو بنسبة ضئيلة قياسًا بما كان عليه الأمر حين كنتُ في العراق أو الأردن، هذا الخجل الذي ضَيّعَ عليّ الكثير من خيرات الحياة.

ما أن خلعت ملابسي حتى بادرتني بالقول في أمر لا يمكن لشخص أن يعلمه عني إلاّ لمن يعرفني معرفة ممتازة للغاية، يخص جسدي. ثم أمسكت بباقة أعشاب خضراء، تحوي أبرًا جدّ صغيرة، وقالت سوف تتألم فأجبتها بكل ثقة ليست مشكلة. كنتُ محظوظًا في تلك اللحظة لأني نسيت كل شيء وركّزت على هذا النوع من الطب الذي لم تبق سوى ثوانٍ قليلة حتى أجربه. وإلاّ لأوقعت نفسي في حرج على الأقل بيني وبين النفس الأمارة بالسوء. فكل عراقي ونتيجة لما عانيناه سوف يسخر من باقة عشب أخضر لا تختلف عن أية باقة خضراء نتناولها نيئة أو مطبوخة.

بدأت تفرك الباقة على ظهري وبقية جسدي، كأنها تُدَلّكني بها كما تفعل الأم مع وليدها أو الْمُدَلّك في الحمامات العمومية. بدأت حرارة تسري

في جسدي، وهذه الأبر الصغيرة جدًّا أشعرتني أنني دخلت غابة أشواك ذات أبر دامية، حرارة جسدي وبالذات أسفل ظهري ترتفع والشعور بوخز الأبر يزداد أَلَمًا. حتى شعر رأسي لم ينج من التدليك، بعد أن تهشمت على جسدي أوراق باقة العشب الأبرية الخضراء، وأثخنته حرارة ووجعًا، وهي المرة الأولى التي تفعل خضراء بي هذا، فكل خضراء تحملني إلى عوالم لوركيّة نسبة إلى الشاعر الأسباني لوركا.

أقول بعد ذلك قامت بوضع يدها في سلة مليئة بأوراق أعشاب مختلفة، وملأت قبضتها ثم وضعت زيتًا مُعَيَّنًا على الأوراق وبدأت بتدليك جسدي كله تقريبًا. وكلما تتساقط الأوراق تمد يدها إلى السلة فتحمل ما تستحوذ عليه قبضتها. ثم بدأت تغرف من سلة أخرى مليئة بأوراق الورد، ورد أحمر وأحمر قانٍ وأصفر وأبيض. ومن قارورة زيت مختلفة زَيَّتَت الأوراق وبدأت بتدليك جسدي، وكررت العملية مرارًا وكنت منتشيًا، فبعد وخزات باقة العشب الأخضر الأبرية، وبعد أوراق أعشاب مختلفة، حضر العطر بكامل بهائه، أوراق الورد النضرة وكأنها توًّا لأجلي قامت بتفريط الورد لتبقى أوراقه نضرة. شعرت بانتشاء مضاعف، أولاً لهوسي بالانخراط بثقافة الآخر للتعرف عليها أكثر ومحاولة هضم ما يمكن منها، والثاني هو نكهة الورد التي حممتني بها فأبعدت آلام الباقة الأبرية بعيدًا.

عندما انتهت كانت أرضية المكان مزدانة بالأعشاب وأوراق الورد بألوانه الزاهية. التقطت صورًا للأعشاب وللمكان وأرضيته وحاولت التصوير مع السيدة ولكنها أخبرتني أنها لا تشعر برغبة بذلك. ودعتها ومضيت إلى خياط يصنع طاقيات وقبعات رجالية مميزة، سألته إمكانية تقصير كُمَّي

قمصلتي الجلدية المغربية، وهي قمصلة جلبها لي حين كنتُ في نيوزلندا صديقي المغربي الذي تعرفت عليه أول يوم وصولي لأرض زي الجديدة. تركتها عنده على أمل العودة بعد ساعتين. ذهبت لأحد المتاحف فوجدته مُغلقًا، فعكست وجهتي للكنيسة الكبيرة التي تقع على الطرف الآخر من الساحة. دفعت دولارين ودخلتها لأنها متحف وحديقة، وكنت دخلتها سابقًا ولكن بقي في ذهني أن تصوير ببغاواتها لأمر يستحق، وفعلاً قمت بالتصوير والتقطت صورًا اعتقد بعضها جيد، خرجت والتقطت صورًا خارج المكان، ثم ذهبت مرة أخرى للمتحف في محاولة كانت فاشلة حيث أخبرني الموظف هناك والذي لم يفتح لي الباب أن المتحف مغلق الآن. تناولت غدائي وذهبت للخياط – الريّاف، واستلمت قمصلتي، ولا أظنه أتقن عمله.

ذهبت مشيًا على الأقدام إلى محطة نقل تبعد أكثر من عشرين دقيقة عن مكان وجودي. سألت هناك عن متنزه أرمينيا، أخبرني سائق الحافلة (أنه) يبعد من هنا 25 دقيقة، ولكن وصلت المكان بعد 35 دقيقة، وهذا أمر طبيعي في الأكوادور وعليه يجب وضع هذا بالاعتبار. بدأت في الحافلة بكتابة قصيدة جديدة, وفي المتنزه أكملتها. من حُسن الحظ أنني ما أن توقفت عن الكتابة حتى انطلقت موسيقى راقصة صاخبة، فنهضت واقتربت منهم ومن ثم واصلت مسيري متجولاً في المتنزه الذي يعدّ من أجمل المتنزهات، ففيه عدة أماكن لاستراحة العوائل ومكان للمشويات والطبخ ومغاسل ومقاعد خشبية تحت مظلات حسنة التصميم. وحين واصلت المسير سمعت خرير ماء، وما أن وجدت فتحة ما حتى دلفت

فيها، كان نهرًا عميقًا وقنطرة من جذعين ذكرتنا بتلك القناطر البسيطة على الأنهار والجداول والقنوات في العراق إذ يتم وضع جذع نخلة لعبور الناس، بينما هنا جذع شجرة عملاقة.

رأيت ما يشبه المشتل، مئات الشجيرات والنباتات مازالت في تلك الأكياس السود. وحين انهمر المطر غزيرًا احتميت تحت شجرة ثم مع ازدياد قوة المطر ركضت نحو إحدى المظلات وكانت عائلة سبقتني إليها. لعبت مع الأطفال وحاولت تعليم الأبن الوحيد لعبة "الدعبل" أي الكريات الزجاجية الصغيرة التي كنا نلعبها سنوات الطفولة. علمت من العائلة أن ثمة حديقة حيوانات، ما أن خفّ المطر حتى هرعت لحديقة الحيوانات والتي رأيت فيها ببغاوات ومكاو وقردة. وقبل ذلك كان زوج ياما وبالإنجليزية تُلفظ لاما، وهو حيوان تكلمت سابقًا عنه.

عاد المطر للهطول وعدت تحت أغصان الأشجار إلى بوابة المتنزه الرئيس، سألت عن مكان توقف الحافلات كي أعود إلى كيتو، فأشار الحارس إلى الجهة الأخرى من الطريق، بعد انتظار عدت لكيتو والجوع يتبعني فتسوقت واشتريت لحمًا وأنا مقل في تناول اللحوم، ربما تحت تأثير ما قالته العطارة الأنديزية. بعد العشاء جلست أدوّن يومي الكيتوي هذا، وأنا أفكر في يوم غد الأحد حيث أرجو أن أوفق لزيارة أهرامات الكيتَويين، وهم سكان كيتو الأصليين، وكلمة الأصليين تُطلق على جميع السكان ممن سبق الاحتلال الإسباني، عكسنا نحن كل فئة راحت تعد نفسها أصلية وتجترح تاريخًا وهميًّا عمره 6500 سنة في العراق إلاّ العرب فهم غزاة، ولم تكتف بهذه المدة المرهقة للتاريخ والمؤرخين بل

جعلته تاريخًا عريقًا عبقًا مجيدًا عظيمًا تحطّم على يد العرب الأجلاف الأوباش الجياع، حسب زعمهم العنصريّ.

بوغوتا عاصمة بلاد ماركيز

الخميس–الأحد، الأول–الرابع من آيار2014

ما قبل السفر

بوغوتا عاصمة كولومبيا، سوف أكون فيها اليوم بعد ساعات. عدة أيام سأتجول في أسواقها ومتاحفها وحاراتها وأزقتها وشوارعها الخلفية، ساستنشق هواء عاصمة وطن الروائي الكبير غابريل مرقس، وأقول مرقس لأني حين تأملت اسمه بالأسبانية استغربت كيف لم يترجم هكذا أعني مرقس وتُرجم ماركيز، وهنا نادرًا ما لاحظت الناس تلفظ حرف (الزَّت) زاء بل عادة أقرب للسين، والياء الإنجليزية تُلفظ بالأسبانية مثل الفتحة عندنا، وحرف الكْيو مقابله القاف. قرأته بهذا الشكل, وليس ذلك تشكيكًا بالمترجمين الذين هم أساتذة تعلمت منهم الكثير وما أنا إلا نقطة في بحر قدراتهم الترجَميّة.

بوغاتو ترتقع عن سطح البحر 2640 مترًا، بينما كيتو وليس كويتو كما يصرّ بعضهم على تلفظها، فهي ترتفع 2840 مترًا، في أسفل نقطة لها على ما استشفيت عن طريق ما كُتب على أحد المتنزهات الذي يقع في نقطة منخفضة. أما شقتي فهي تقع على ارتفاع يزيد على 2850 وربما 2870 مترًا. فالصعود من أسفل الشارع حتى بيتي وإن أصبح بالنسبة لي

طبيعيًّا ولكنني في الشهور الأولى لوصولي لكيتو كان صعبًا. ذكرني بعمان حين كنت أرتقي 140 درجة (سُلَّمَة) من مكتبة أمانة عمان الكبرى عند الساحة الهاشمية حيث كنتُ أقضي ساعات منهمكًا بالقراءة، حتى بيتنا في جبل الجوفة مجاور المدرج الروماني.

الوصول إلى بوغوتا

الطيران من العاصمة الأكوادورية كيتو إلى مدينة كالي، وبعد اجراءات الدخول وختم الجواز. كان الموظف في غاية اللطف، بخلاف ما أعاني منه في بعض البلدان العربية. تصورت أن موعد الطائرة لم يبق عليه سوى عشرين دقيقة، وحين وصلت قرأت في أقرب شاشة أن الموعد لم يُقَرّر بعد، انتظرت أكثر من ساعة حتى دخلنا للطائرة. وهذه حالة جد طبيعية في الأكوادور وكولومبيا وربما في بقية دول أمريكا اللاتينية.

مدينة كالي ذات طقس أقل برودة وأكثر حرارة من مدينتَيْ كيتو وبوغوتا. لكن بوغوتا الأكثر بردًا، وصلتها ليلاً، وسائق الأجرة كان دليلاً سياحيًّا، شرح لنا في الطريق معلومات مهمة للغاية، منها أن منطقة المطار كانت منجم ذهب والمنطقة التي تليها أي الأقرب للمدينة كانت تحوي مناجم ملح وهي مليئة بالبحيرات، وبما أنه ليل فلم أر سوى عمارات جميلة جعلتني أتذكر بغداد وأتَحسَّر.

بعد وصولي للنّزُلِ منحوني غرفة هي أقرب للجناح، الظاهر أن لا زبائن لديهم، سألت الفتاة العاملة في النُّزُلِ عن المطاعم أخبرتني أنه الأول من

آيار ومعظم المطاعم مغلقة، لكن ربما أجد واحدًا يفي بالغرض فلا أبيت ليلتي بلا عشاء، وَرَسَمَتْ لي خارطة ناولتني معها البطاقة التعريفية بالفندق. كانت الطرق مليئة بالسكارى والإضاءة خافتة، مررت بمجموعة كبيرة أنهكها السكرُ، قلت في داخلي مازحًا مع خوفي: امنحوني فرصة تناول العشاء.

المطاعم مغلقة والسكارى يحتلون الشوارع الخلفية، وجدت محلاً لبيع البيتزا. اشتريت قطعة وفي أثناء انتظاري. جاء سكير ومعه بطانية يبيعها، حسبته أولاً يسألهم طعامًا أو بما أنهم على شفا الإغلاق أن يبيت ليلته قرب محلهم. لكن اتضح لي أنه يتاجر ببطانيته ربما الوحيدة. هل يريد بيعها كي يملأ جوفه بالمزيد من الخمر أو المريجوانا؟

رأيت الرجل يعرض بطانيته على سكارى، وسكارى يصرخون على سكارى مثلهم والطرقات تنصت للغريب وهو يطرق ظلمتها. ظلمة تقود خُطُواتي في طرق حجرية دوّنَ السحرةُ عليها واقعيتهم.

الحادية عشرة ودقيقتين ليلا وموظفة النُّزُل أخبرتني أن لا حق لي بعد الحادية عشرة.

زيارة أهم معالم بوغوتا .. الجمعة الثاني من آيار

ابتدأت يومي بزيارة المكتبة الوطنية، وفيها لاحظت معرضًا عن الراحل الكبير صاحب مائة عام من العزلة. كان المعرض قد أقيم قبل وفاته بفترة وبعد انتهائه بأسبوعين توفي غابريل، فأعيد المعرض، وهو يحوي نماذج من طبعات مختلفة لرواياته وبعدة لغات منها الطبعة الأولى من روايته مائة

عام من العزلة المذكورة أعلاه، والتي أخبرني الموظف المشرف أن سعرها الآن بالآلاف لندرتها. وثمة كتب عنه ولقاءات ومقالات في صحف ومجلات، وصورة له في طفولته المبكرة، وجدتها بعد ذلك في أكثر من مكان.

وقبل أن أتحدث عن بقية نشاط اليوم أود القول إنني رأيت احتفاء كبيرًا في أنحاء المدينة، ولا أدري لماذا تذكرت أبناء الطغاة وهم يجبرون الشعوب على وضع صور الطاغية الأب. هنا كان غابريل غارسيا مارقس أو "غابي" مثل مايطلق عليه اختصارًا وتحببًا، طاغية من نوع مختلف تمامًا، إبداعه العظيم زرع المحبة في قلوب شعبه الكولومبي، هو الزعيم الحقيقيّ للأمة، لا تلعنه الأحزاب ولا الفئة الباغية حتى، بل الجميع يتشبث بأذياله.

كولومبيا ضحية الحروب الداخلية والمخدرات وتناحر المافيات، أحبتها شعوب الأرض لأنها أنجبت عبقريًّا زرع محبتها في قلوب الملايين من البشر، ليحصد محبة شعبه، طغيانًا تتمناه جميع الشعوب، ويحلم به كل مبدع حقيقي كرَّسَ حياته للإبداع. كولومبيا هي غابريل وغابريل كولومبيا، شعرت بهذا وأنا أرى احتفاء البلاد به، تذكرت السيّاب الذي لم طالما تلقى سهام منتقديه ومعظمهم إن لم يكن جميعهم لم يحققوا في عمر أكبر من عمره الذي عاشه، رُبعَ وربما عُشر ما حققه هو حين كان تحت سنّ الثلاثين من العمر. لكن أقسى السهام حين تم إلغاؤه وإخراجه من الشعر عند أحدهم، حين سمعتها، قلت إن اتهام السيّاب بعدم الثقافة، لهو أهون من وصمه بأنه "ليس شاعرًا"، هكذا بكل بساطة. ما أقسانا

نحن العراقيين أحيانًا، نفرط بالحب كما نفرط بالكراهية مع الأسف. وهذا لا ينفي خصال رائعة عندنا منها الحميمية العراقية التي نادرًا ما وجدتها عند بقية الشعوب.

أعود للراحل الرمز. شاهدت صورًا كبيرة الحجم ومعرض صور في شارع مهم إضافة للذي كان في المكتبة الوطنية وسواها. إحدى الصور كانت كبيرة الحجم في أهم ساحة في العاصمة بوغوتا. سوف تبقى لفترة كلما نظر لها الكولومبي يتحسر على فقيد الأمة. لن تجد فقراء يمزقون الصور ويجعلون من حديد إطاراتها فائدة لبيوتهم المجهزة بالفقر والحرمان والخسارات، بل الفقير يتفق مع الغنيّ في هذا الحب والاعتزاز والفخر والتباهي.

المكتبة الوطنية التي لم تخل من الكتب العربية، ذات مساحة كبيرة وبعدة طوابق تصميمها رائع. تحوي حجرات صغيرة الحجم تشبه حجرات الهواتف ولكن أكبر قليلاً، يدخل الطالب لإحداها ويغلق الباب عليه ويقرأ ويدرس ويذاكر، وأما الحواسيب (جمع حاسوب) ففي كل مكان؛ وجدت مختلف الأعمار يطلبون العلم فيها. تحسرتُ كعادتي فهل يُعقل أن صاحب أول مكتبة في العالم لا يوجد فيه مكتبة بهذا المستوى، قلبي عليك يا وطني يدمع.

كانت محطتي الثانية متحف النقود، وفيه تذكرت رقيّ النقود العربية التي سُكَّت في القرن الثالث قبل الميلاد، وهي أكثر رقيًّا واحترافية من نقود سُكّت هنا قبل ثلاثة قرون فقط، أي بعد 2000 سنة على سكّ النقود العربية التي كانت مثل مايذكر العلامة جواد علي في موسوعته المفصل

في تاريخ العرب قبل الإسلام، متقنة الصنع بحيث لا بدّ من وجود محاولات كثيرة سبقتها جعلت الخبرة تتراكم وتصل إلى هذه الدرجة من الاتقان. والنقود هي من أركان الحضارة الأساسية، بعد الكتابة والعمارة، وهما مما عرفه العرب قبل الميلاد بقرون طويلة.

محطتي الثالثة هي متحف بوتَرو للفن، وفيه شاهدت المعرض الدائم للفنان فرناندو بوتَرو، الذي قام بإهداء كمية كبيرة من أعماله (رسم ونحت) لعاصمته ليكون المتحف باسمه، وهو مواليد 1934 ميديين المدينة الشهيرة بالمخدرات ومهرجانها الشعري العالمي الأكثر شهرة. يمتاز فن بوتَرو برسم السُمنة، البشر والحيوانات والفواكه. وكانت ثمة أعمال لعدد من الفنانين ومن بلدان مختلفة؛ في المعرض ثمة خطّ على الأرض لا يمكن تجاوزه، كي تبقى ثمة مسافة بين الجمهور واللوحة، حماية لها من المتطفلين، ما حدث هو أنني التفت وفي أثناء التفاتتي للخلف, جسمي تحرك وربما يدي والسبب كنت أنوي المقارنة بين اللوحة التي أمامي وبقية اللوحات لاسيما التي على الجهة المقابلة؛ هنا رنّ جسر الإنذار والحماية، فارتبكت لكن الموظفة القريبة من المكان كانت في غاية اللطف والتهذيب، مما خَفَّفَ من ارتباكي وخجلي ودهشتي المتسائلة.

متحف الملابس والأزياء كان محطتي الرابعة، ويحوي قطعًا قديمة للغاية من الأقمشة، وأزياء مناطق كولومبيا جميعها، وبعض الأزياء القديمة. من خلال الأزياء يتم التعرف على اختلافات الشعب الواحد، والتي تعد طبيعية للغاية مع تنوع اللغات والأديان والمذاهب وطبائع القومية الواحدة

لمجرد اختلافات بين منطقة وأخرى تحت تأثيرات متنوعة منها جغرافية ودينية ومذهبية أو مجاورتها لفئات لغوية وعرقية مختلفة. واعتزّ بعادتي التي ربما تكون سيئة، وهو أنني أتذكر بألم مَن يجهل تاريخ العراق وبقية أوطان خلق الله فيفتي بأمور مسيئة للغاية من مثل أن العراق متعدد اللغات والقوميات وإلخ وكأنه الوحيد بين دول العالم، غامزًا بحسّ طائفيّ. البلدان العظيمة هي الأكثر تزاوجًا وتعددًا، لأنها محطّ هجرات لتميزها وفرادتها وثرائها.

متحف الذهب، هو محطتي الخامسة، ويحوي على نماذج من الذهب المخلوط بالفضة والنحاس والصفر، بعضها يعود إلى ما قبل الميلاد ولكن نسبة كبيرة منه تعود إلى الفترة ما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين، وبعضها قبل دخول الأوربيين. تأثير الدين والكهانة والسحر والأوراح جد واضحة على الأقنعة والمصوغات، هذه الخلطة التي كان أهل الروائي الكبير غابريل غارسيا مَرقس (ماركيز) يؤمنون بها لاسيما الأرواح مما كان له أثره في روايته الأشهر (مائة عام من العزلة)، فديانة المنطقة تؤمن أن الإنسان يموت ولكن تبقى روحه بيننا يسمعنا ويرانا، وهو ما عشته في طفولتي مع جدتي التي كانت تؤمن بهذه الأمور.

من الأماكن التي زرتها بلازا دي بوليفار وكاتدرائية بوغوتا. وتجولت في الأسواق وبعد أن اشتريت ثلاثة قمصان صيفية (تي شيرتات) عدت للنُّزُل وفي طريق العودة رأيت مظاهرة يحملون شوكات الطعام مع صحون ويضربون عليها، وترديد بعض الشعارات، فانخرطت بالمظاهرة فللمظاهرات رونقها أحيانًا، ولأني لم أشارك بمظاهرة منذ مدة كانت

فرصة أن أشترك اليوم، ولكن حين رأيت الوقت قد تأخر ومكان إقامتي نآى، والكثير بدأ يخرج منها تركتها وعدت لأجد في طريقي شرطيين يفتشان أربعة شباب وجوههم للحائط، المشكلة كنت أبحث في اسم الشارع الذي أنا فيه وهو فوق رؤوسهم، انتبه أحد الشباب فما أن أدار وجهه عكس الحائط حتى التقت عيوننا. تذكرت جملة يا غريب، فأدرت وجهي ومضيت أبحث عن طريق يوصلني للنُّزُل، قبل وصولي تناولت عشائي ودخلت مكان إقامتي لأبدأ بتدوين هذه اليوميات.

رائحة الملح: السبت، الثالث من آيار

أعلم أن ثمة مَن سيضع هذه العبارة أو العنوان موضعًا في أحسن حالاته هو أقرب لكلام شاعر. رغم أن أكثر سؤال يؤرقني هو: هل أنا شاعر. رائحة الملح هذا اليوم في كاتدرائية الملح شممتها، نعم كاتدرائية في منجم ملح. هذا المنجم الواقع تحت تلة في بلدة سيباقيرا، وهي بلدة أطلقتُ عليها تسمية الزرقاء، فاللون الأزرق في كل مكان، وكأنه رمز المدينة أو حرزها أي تميمتها. طرزها المعمارية بين العمارة العربية والأوربية، وأجمل ما فيها أسواقها ومطاعمها بطرازها المعماري العربي وباللون الأزرق الذي يلوّن شرفاتها وشبابيكها وأبوابها بما في ذلك بيت الشاعر غيجَرْمو قَفَدو (1886– 1964) الذي نبتت في فضائه وبالأدقّ حوش البيت، نباتات شتى قيل إنها لا تنبت إلا على قبور الشعراء والعشاق وفي الأماكن التي يحبونها، وكتبوا قصائدهم أو قبلوا حبيباتهم فيها.

كاتدرائية الملح لا تبعد عن بيت الشاعر سوى عدة مئات من الأمتار، وهذه الكاتدرائية العجيبة تحت الأرض 180 مترًا، وتتكون من عدة طوابق، هي متاهة لا أدري كيف لم يكتب عنها الروائي غابريل ماركيز رواية وربما كتب ولكني لم اطّلع عليها. هذه المتاهة العجيبة والمدهشة تعدّ عجيبة كولومبيا الأولى، لكنني سأبقى أؤمن أن غابريل غارسيا ماركيز هو عجيبة كولومبيا الأولى على الرغم من الفارق بين البشر والأرض.

قضيت ساعات عدة في منجم الملح المدهش هذا، إذ كان السكان المحليون يقومون بوضع الماء في جرار وتسخينها وحين يتبخر الماء تمامًا يقومون بكسر الجرار. وللكهنة مكانتهم في كل شيء، حتى جاء الإسبان فاستعبدوا الناس، فجبل الملح الذي كان جزءًا من البحر قبل أزمان سحيقة ويرتفع كثيرًا عن البلدة الزرقاء، أصبح 180 مترًا تحت الأرض، ويحتاج التجول فيه إلى ساعات والملح تفوح رائحته في كل مكان، هنا ربما المكان الوحيد في العالم تشم الملح ولا تتذوقه، على الرغم من أني تذوقته وكان أكثر ملوحة مما تذوقت من أملاح خلال تجوالي.

ثمة حوض طبيعي مليء بالماء وعلى عمق عشر سنتمترات وكما مياه البحر الميت لا يمكن أن تغطس فيه المواد. وصفاء الماء على درجة عالية بحيث تحتاج لوقت كي تعي أن الذي أمامك ماء عكس السقف، ومما يساعد ليس صفاء الماء المدهش بل إن الكثير من السقوف والحيطان التي قبّلها مجنون ليلى وكتب على صفحاتها هُيامه، تتشابه هنا. وهذا المنجم لا يخلو من المطاعم ومحلات التذكارات وما يخص

الملح حيث قواعد الشموع والإنارة والكثير من الصناعات التي تعتمد على الملح وكريستالاته، وثمة عرض يعتمد الإضاءة الملونة وقاعة سينما دي 3. بعبارة أخرى هو عالم عجيب حقًّا وعرفوا كيف يستغلوه سياحيًّا ليدرّ عليهم أموالاً طائلة.

بعد خروجي من المنجم "كاتدرائية الملح" كما هو اسمها الرسمي، تجولت في المكان الذي لا يقل جمالاً عن الأسفل، فالأعلى عبارة عن متنزه وحدائق ومطاعم مصممة بشكل يستحق التقدير، فمَن يتجول تحت الأرض على عمق مائة وثمانين مترًا لا بدّ له وهو يعود من العالم السفلي بصحبة عشتار إلى عالمه الطبيعي أن يشعر بالجوع والعطش. لكن غالبية المطاعم هي شركات وليست مطاعم أهلية فردية، فهبطت من أعلى التلّ إلى البلدة وتناولت غدائي في أحد المطاعم ومثل عادتي التي لا أغيرها إلا نادرًا تناولت سمكة كان طبخها ألذّ مما تناولته في الأكوادور. تجولت في البلدة والتقطت صورًا لبعض الأماكن فيها، ثم ذهبت لموقف الحافلات وعدت لبوغوتا. وواصلت تجوالي في شوارع وأسواق العاصمة التي لم أزرها أمس، ومرّت بجانبي عائلة عربية كان الزوج والزوجة يتناقشان في مسائل معينة ولكن بحكم سنواتي الطويلة مع بيئة اللغة الإنجليزية تذكرت أسئلة الكثير من النيوزلنديين وسواهم بخصوص نقاشاتنا وطرق تواصلنا بأمر ما "هل هما يتجادلان سلبيًّا؟" فكنت أجيب كعادتي بل هو نقاش طبيعي ولكن أصواتنا تكون جادة للغاية فيُخَيَّل لكم عكس ذلك. الاختلاف ليس بين اللغات فقط، بل وفي أصواتها وتموجات مفرداتها وجملها ونبرات الصوت عند الناطقين بها.

حاولت الحصول على طعام كولومبي ولكن معظم المناطق التي مررت بها أما مغلقة أو وجباتها غربية، فوجدت مطعمًا يدعى مطعم خليفة وصاحبه فلسطيني فتناولت عشاء خفيفًا، وقطعة بقلاوة جودتها مناقضة لجودة الفلافل. واصلت التجوال وأنا أتأمل مجتمعًا كبقية مجتمعات العالم متعدد الأعراق والقوميات والأديان والمذاهب، ينبض بالحياة والمحبة، خصوصًا بعد توقيعهم لمعادة سلام دفعت الاقتصاد الكولومبي للتحسن كثيرًا، راجيًا أن لا تخرج طائفة لبست لبوس الجهل والكراهية لتدعي أن هذا المجتمع عبارة عن مجتمعات غير متجانسة كما فعلوا ويفعلون مع وطني وشعبي.

ارقد بسلام أيها الساحر يا غابي المعلم

حين أقلني سائق أجرة من المطار للنّزُل، أخبرني أن قداسًا على روح غابريل غارسيا ماركيز، سيقام يوم الأحد القادم، وأشار بيده إلى كاتدرائية فوق تلة تطل على المدينة. لم يكن السائق دقيقًا، فحين سألت في المكتبة الوطنية، في اليوم التالي أخبروني أن القُدّاس قد تمّ الأحد الماضي، لكنني حين تركت المكتبة الوطنية بعد مكوث استغرق أكثر من ساعتين، تلقائيًّا وجدتُ نفسي أنظر جهة الكاثدرائية.

ما رأيته في العاصمة الكولومبية، في بوغوتا أن ماركيز كان حاضرًا بقوة، صوره في كل مكان، معارض عنه بعضها على جدران البيوت في الشوارع أُعّدت بشكل بسيط لكن بمحبة عالية. شعرت أن الراحل الكبير يعدّ

رمزًا للبلاد ومفخرةً، بما تعنيه الكلمة وليس مجرد كلام عابر. ولم أستغرب وأنا مازلت في العاصمة أن أعلنت الحكومة عن جائزة كبرى باسمه تمنح للأدب الروائي المكتوب بالإسبانية.

لحظة رحيل ماركيز كنت في أمازون الأكوادور في أعماق نهر نابو متجهًا إلى آخر نقطة من الأكوادور محاذية للحدود مع البيرو، وكنت قد زرتها في كانون الأول 2012 وهذه زيارتي الثانية لها والأخيرة حتى إشعار آخر. ففي المرة الأولى قررت أن هذا المكان يستحق الزيارة مرة ثانية بل والمبيت ليلة في أعماق الغابات تحت خيمة بسيطة.

رحل ماركيز أثناء رحلتي لمعانقة محمية ياسوني الأهم والأثرى بيئيًّا في العالم. كنت في نهرٍ وماركيز نهرٌ من أعظم أنهار أمريكا الجنوبية، كما يطلق محبو الجواهري أنه النهر الثالث في العراق، دجلة والفرات والجواهري، هكذا أرى ماركيز. توغلي في الغابات جعلني أجهل ما يجري في العالم فأنا في حينها انقطعت للطبيعة العذراء، وخرجت بخبرة كبيرة ومتعة أكبر لم تنغصها لسعات الحشرات التي ربما تجاوزت المائة لسعة، وبعضها بقي يرافقني لأكثر من أسبوعين. لكني ما إن وصلتُ للنُّزُل حتى علمتُ برحيل نهر كولومبيا المتدفق إبداعًا.

في بوغوتا وفي مكتبتها الوطنية، رأيت ولأول مرة صورًا لغابريل غارسيا ماركيز الطفل، والطبعة الأولى من روايته "مائة عام من العزلة" وأكثر من كتاب له عن الأطفال، وصورًا وحوارات معه ومقالات عنه في صحف ومجلات قديمة، غابريل الطفل سيتكرر في كل مكان، أعني الصورة. فالمعارض والنشرات الجدارية عنه تكاد لا تخلو من تلك الصورة.

لماذا التركيز على صورة نهر كولومبيا الكبير وهو طفل؟ سؤال خطر ببالي، وربما يخطر ببال كثيرين، وشخصيًّا أرى أن موت الإنسان هو انتهاء دورة حياته فتصبح الطفولة أقرب له من الشباب. فنقطة النهاية مجاورة تمامًا لنقطة البداية في الدائرة. من هنا جاء التركيز على صورتين صورة ماركيز طفلاً وصورته الأخيرة، حيث حفر الزمن روايته على صاحب مائة عام من العزلة.

بداية تعرفي على ماركيز بعد فوزه بجائزة نوبل حين راحت ترجمات رواياته تملأ الأسواق، ومازلت أتذكر حين عدت للبيت متأخرًا، ففتحت رواية "الأرانديرا الطيبة وجدتها الشيطانية" لقراءة بضع صفحات قبل النوم، فلم أشعر إلاّ بعد الانتهاء من قراءتها، ربما يكون الأمر عاديًّا لو كان الوقت نهارًا أو بداية ليل، لا أن يكون قبيل الفجر.

ما شعرت به أثناء قراءتي لماركيز، أنني أمام صديق أنيس مثقف يجيد الحكي بحيث لا يُملّ مما يُخبر به حتى لو كرر بعض الحوادث، أي ليس كاتبًا متعاليًا يكتب من برجٍ عالٍ، بل حكّاء فطري ومثقف في آن واحد، هذه المقدرة العجيبة التي أوصلته لجائزة نوبل، هي ذاتها التي رافقتني لسنوات، أعني أجواء السرد الغرائبية، ليس في مرحلة العيش في الأكوادور فقط، بل حتى مرحلة جنوب شرق آسيا، حيث روايته "مائة عام من العزلة" فرضت أجواءها، وأنا أخوض في كهوف وأحراش وجبال ووديان وقرى وغابات جنوب شرق آسيا.

مثلما كنت أستحضر العراق وتاريخه، وأبتسم بأسف بالغ لمن يُدوّن أو يُصرّح جهلاً أو بسوء نيةٍ "أن العراق متعدد القوميات والأديان

والمذاهب" أو ما شابه ذلك، أو الحديث عن حدود مصطنعة خلقها الإنجليز، بينما العراق في الحقيقة كإقليم جغرافي حدوده واضحة وهي أكبر من حدوده الحالية، وسبب أسفي أن هذه البلدان تكاد تكون حدودها في الغالب الأعم لا موانع طبيعية بينها، فثمة جداول تفصل بين الدول، كي لا أقول أنهارًا فيذهب الخيال إلى مساحات مائية عرضها مئات الأمتار، بينما عدد اللغات هو ما لا يقل عن عشرين مرة أكثر مما في العراق. وكان غابريل غارسيا ماركيز يحضر بكامل بهائه حين كنتُ أمرّ على قرى لا تبعد سوى مسافات قليلة عن بعضها ولكن لكل قرية لغتها ودينها وأزياؤها، ومَن يدري ربما مطبخها الخاص والمختلف.

ماذا لو كان ساحر السرد من سكان جنوب شرق آسيا ومن تلك المناطق التي عشتُ فيها وتجولت بين أكثر من مِئتَي لغة ومجموعة عرقية، كيف ستكون "مائة عام من العزلة" مثلاً؟ هذا ما كان يتبادر إلى ذهني وأنا استنشق عبير هذه الشعوب وانغمس بمناخاتها، أشاطرهم تناول الطعام والعمل والحديث وأتسامر معهم وأرقص في أعراسهم وحفلاتهم وأشارك في طقوسهم الدينية، وأنا كنتُ أجهل لغاتهم لكني كنتُ أتحدث بلغة المحبة التي أرضعتني إياها أرضي الأولى وبيئتي البكر وأسرتي المتدينة، كي لا أكون سائحًا إنما مواطن عابر للحدود، يجد نفسه مع هؤلاء الناس مهما اختلفوا لغة وعرقًا ودينًا، وعليه لم يكن اعتباطًا ما ختمت به قصيدتي "عن الغريب الذي صار واحدًا منهم" والمنشورة في ديواني بلوغ النهر:

أُنْصِتُ للقلوبِ وهيَ تَتَغامَزُ:
انظروا للغريبِ لقد صارَ واحدًا منا.

في بوغوتا، كانت صور ماركيز الكبيرة، تُخبر عن حفاوة مميزة من قبل بلاده يستحقها الراحل، لكن هذه الصور التي ظهرت كخلفيَّةٍ لصور التقطتها أو التُقِطَتْ لي، إضافة للملصقات واللافتات والمعارض ...إلخ، ما يمكن تسميته بأن كولومبيا حكومة وشعبًا تقرّ بأنها خسرت الكثير برحيل ابنها ومبدعها وعلمها ماركيز، رغم أنه بلغ من العمر عتيًّا، مما يعني استحالة أن يُقدّمَ ولو شيئًا يسيرًا مما قَدَّمَ سابقًا، لكنه الاعتراف بالكفاءة والموهبة وبالمبدع الخلاّق.

أقول إن هذا المشهد الذي كنت شاهد عيان على نهايته، أجبرني أن أتذكر جنازة السياب أحد مؤسسي حركة الشعر الحديث، فلم تكن جنازته بائسة والمطر يزيد المشهد أسىً فقط، بل وجود عائلته خارج البيت مطرودين من قبل شركة النفط التي كان يعمل فيها بحجة انتهاء إجازاته، وبين فترة وأخرى يخرج علينا مَن يُشكك بالسيّاب رافضًا وضعه في سياقه التاريخي، فمرة لم يكن مثقفًا، وهو الذي مات في الثلاثينات من عمره وسنوات حياته مليئة بالفقر والمرض والحرمان والمعاناة، وأخرى على سبيل المثال هو "ليس بشاعر" وربما هناك مَن يرحم فيردد "أن الأساليب الشعرية الحديثة تخطتها كثيرًا". ولا أظن أن مبدعين عراقيين عرفوا الحفاوة في حياتهم ومماتهم، كما عرفها أقرانهم في دول أخرى.

ودّعتُ كولومبيا وبقيت صور ماركيز الطفل وماركيز الشيخ في مخيلتي، كما سرده الذي كنتُ ألمسه حيًّا في الحياة الأكوادورية، وبالذات الحياة القروية إن كان في جبال الأنديز أو أعماق الأمازون أو قرى الساحل، حيث المحيط الهادئ الذي طالما أغوتني جزره وعوالمها المدهشة. وكنتُ أنظر من نافذة الطائرة إلى كولومبيا مودعًا طبيعتها الساحرة المليئة بمئات الأنواع وبكميات هائلة من الطيور أيضًا. ومرددًا مع نفسي: ارقد بسلام أيها الساحر يا غابي المعلم.

بوغوتا، العودة، الأحد، الرابع من آيار.. ليس الآن

مرهقٌ للغاية، ومع ذلك أشعر بنشوتين، الأولى زيارتي للعاصمة الكولومبية بوغوتا وفيها لمستُ حب الشعب والحكومة معًا لأحد أهمّ أدباء كولومبيا، الراحل الكبير غابريل غارسيا ماركيز. والنشوة الثانية هي شعوري مرة أخرى أني هنا أكتب وأدوّن حياتي. المطبات الهوائية لا تخلو منها رحلة ولكن أن تجعل الطائرة تهبط مسافة بحيث جميع ركاب الطائرة صرخوا بصوت واحد خوفًا ورعبًا، وإن سيطر الصوت النسائي على الرجالي. ولأول مرة رأيت كيف اندلقت القهوة من الفنجان للأعلى، على سقف الطائرة، تركت آثارها، اندلاق معاكس، وأغلبنا تبقعت ملابسه بالقهوة. قهوتي حافظت على اتزانها، ربما لأني مسكت فنجاني جيدًا، إذ كان ممتلئًا، فمن عادتي أن لا احتسي القهوة والسوائل الساخنة إلا بعد دقائق. لا أعرف السبب، ربما كنتُ محظوظًا. لكن يبقى قفز القهوة من الفنجان إلى سقف الطائرة حالة تدعو للإرباك الشديد الذي يتغلغل

الخوف في ثناياه. وفيها رددت (ليس الآن)، وعنيت لم يحن وقت الموت بعد.

حين وصلنا مطار ميديين، تمنيت أن يكون اتجاه الطائرة إلى العاصمة الأكوادورية كيتو لا يمر بنفس اتجاهها من بوغوتا إلى ميديين، أعني خط الطيران نفسه. هل هو الخوف مما حصل؟ فليس بالأمر الهيّن أن تهبط الطائرة نتيجة مَطَبٍّ هوائي عشرات أو مئات الأمتار، ويتملك الرعب رُكّابها. وتحقق ما تمنيته، فلم نتعرض لمطب هوائي مزعج إلاّ في حالات نادرة تكاد لا تذكر. كان طيرانًا آمنًا عكس طيراننا من بوغوتا إلى ميديين.

استغربت يومًا حين أخبرني شخص عزيز عليّ أنه يحب المطبات الهوائية ويستمتع بها. تساءلت كيف تكون ردة فعله، على ما حدث اليوم في أثناء الطيران من بوغوتا إلى مديين؟ وحين وصلت إلى كيتو كتبت له: كيف تكون ردة فعلك بمطب هوائي جعل سقف الطائرة يحتسي القهوة معنا؟ لم يجعلني انتظر طويلاً بل داهمني بقوله "ياساتر هذه كارثة لولا لطف الباري".

هاسِيَندا سِيَنغا قرب لاسو لاتاكونغا 17-18آيار2014

Hacienda Cienega 400 years old same family near Lasso, Latacunga Ecuador 17-18 May 2014

بحثنا كثيرًا من أجل إيجاد هاسِيَندا جيد ورخيص، للمبيت ليلة واحدة فقط، كي نجرّب حظنا ونعيش كما تلك اللحظات قبل قرنين وثلاثة وأربعة، ونطلع على نظام الهاسِيَندا الذي كان سائدًا في تلك القرون؛ ففي

هذا المكان نجد قصرًا أو بناء يتكون من طابقين أو ثلاثة، وعددًا كبيرًا من الغرف والقاعات، مع وجود كنيستين، الأولى في داخل البناء وهي للسادة الإسبان فقط، فلا يحق للعمّال والعاملات بدخولها كي لا "تتدنّس" والثانية خارج البناء ليرتادها المسيحيون الكاثوليك من سُكّان الأرض الأصليين، الذين أُجبر آباؤهم على اعتناق دين المحبة والسلام الإسباني.

العمل في مزارِع وحقول وبساتين الهاسِيَندا، هو أقرب للعبودية منه للعمل، وفيه تنتعش الحالة الحيوانية عند الإنسان الأبيض في استغلال الفقراء وهم ممن ينتمون للأرض، لا يقتصر الاستغلال على العمل ودفع أجور زهيدة للغاية، بل في اغتصاب الفتيات، مما يضطر العوائل إلى تزويج بناتهم قبل إرسالهن للعمل في هذه الأقنان. ولا يمكن الحديث عن خروقات حقوق الإنسان وامتهان كرامته، لأن ذلك سوف يحتاج إلى صفحات كثيرة؛ لكن بإمكان الخيال أن يتصور حالة العيش والعمل في الهاسِيَنْدا في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وعند المقارنة بين أوضاع الحياة في هذه الأماكن وما كان عليه الوضع في منطقتنا في القرنين السابع والثامن الميلاديين نكتشف أن أحاديثنا عن ظلم تعرّضت له شعوب المنطقة قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، على يد العرب الفاتحين، هو أقرب لجلد الذات حين ينطق به عَرَبيّ، وهو عنصرية معادية للعرب حين يصدر عن شخص غير عربيّ، أو تَوَهّم نفسه ليس عربيًّا تماشيًا مع التقليد السائد هذه الأيام نتيجة الانهيار العربيّ؛

مقارنة بحجم الظلم والاستغلال الذي تعرضت له شعوب أمريكا الجنوبية على يد الإسبان.

من عادات الناس هنا التباهي بأوربا، وعليه يقوم الأغنياء بجلب قطع أثاث أو بوابات وأبواب لقصورهم وكنائسهم أو شراء ملابس ومجوهرات؛ فإذا كان الثَّريّ في انجلترا يقوم بدعوة أصدقائه إلى مزرعته وعلى الخيول يقودهم إلى أعلى نقطة في المكان الذي كان قد أعدّه سلَفًا كي يتباهى بأراضيه الشاسعة؛ فأن الثَّريّ الأكوادوري وربما كل ثَريٍّ في أمريكا الجنوبية الإسبانية، يتباهى بأثاث قصره الذي صُنعَ في أوربا، فهذه البوابة صناعة إسبانية، وهذه الستائر فرنسية وتلك الأَسرّة من أوربا وكذلك السّيوف والملابس والكراسيّ والطاولات وأدوات الطعام من صحون وملاعق وشوكات وسكاكين. هكذا هو الحال في أمريكا الجنوبية حتى ماضٍ ليس بالبعيد، بل ما زالت ثمة طبقة من المجتمع تسير على نهج الآباء، على الأقلّ في الأكوادور كما لمسته وعايشته، وسأدوّن هذه الحادثة كشاهد عيان وتوثيق لما أقول.

في المدرسة الأمريكية في العاصمة الأكوادورية كيتو، وهي أكبر مدرسة في البلاد يبلغ عدد طلابها أكثر من ألفي طالب وطالبة، وهم أبناء الأثرياء ومن المفروض أنهم قادة المستقبل كما هو حال غالبية كبار الموظفين والملّاك والتجار والصناعيين والسياسيين اليوم ممن درسوا في هذه المدرسة التي ضمن نشاطاتها الكثيرة؛ مسابقة سنوية لملكة جمال المدرسة، ولضمان الفوز بها قامت طالبة بالسفر إلى باريس وشراء فستان خاص بالمسابقة، من أرقى محلات دور الأزياء في العاصمة باريس، كان

مجموع تكلفة الرحلة هو ثلاثون ألف دولار أمريكيّ فقط لا غير. مبلغ يكفي لإشباع خمسة آلاف عائلة ليوم واحد، أو مئة عائلة لشهر كامل.
عند الدخول إلى المكان من البوّابة الرئيس، يواجهنا شارع تشمخ على جانبيه أشجار عملاقة، وقبل الوصول للبناية – الفندق، ثمة نافورة دائرية حجرية كما هو البناء السائد بصبغته الرمادية، وإيوان يؤدي إلى الغرف والقاعات الكثيرة، بعضها غرف أعدّت للنزلاء، تحوي مدفأة وحمّامًا وأثاثها لا يختلف في تصميمه عما كان عليه في غابر القرون. في القاعات ثمة صور كثيرة لأصحاب المكان، إذ إن هذه العائلة هي نفسها ورثت الهاسِيَنْدا أبًا عن جدٍّ، وبالرغم من أن المساحات الزراعية لم تعد بذات المساحة التي كانت عليها سابقًا، لكن ما بقي هي مساحات كبيرة بحق، وتحوي بساتين وحقولاً ومزارع متنوعة وحيوانات كالبقر والياما (اللّاما) والدجاج، وكما في السابق فأن غالبية العمال الخدميين إن لم يكن جميعهم هم ممن ينتمون إلى السّكان الأصليين، ومصطلح السّكّان الأصليين يُطلقُ على الفئات التي تعيش في أمريكا الجنوبية قبل مجيء الأوربيين.

الحلم الذي لم يتحقق

أحاول منذ تسعة أشهر أن أخوض تجربة العيش مع قبيلة من السكان الأصليين هنا، ثمة مبشر أمريكي يفعل ذلك دائمًا، فهو دائم التردد عليهم ويمكث في كل زيارة قرابة أسبوعين ثم يعود إلى عائلته في كيتو؛ عقوبة القتل لدى هذه القبيلة مثل شرب الماء، فهم يقتلون لأبسط

الأسباب، فعلى سبيل المثال حين تزل قدمك في حقل أحدهم فذلك يعني انتهاكًا لكرامته مما يُحَتّم موتك؛ لكن حبي للمغامرة وتَوقي للبقاء مدة أسبوعين مع سكان لم يفارقوا أبدًا تقاليدهم القديمة كانا سببًا مغريًا لذلك. لكن مع الأسف، أنني سأترك الأكوادور ولم أحقق هذا، فما هي إلاّ مدة أيام معدودات تفصلني على مغادرة هذا البلد الذي عشتُ فيه ثلاثة أعوام مليئة بالسفر والمغامرة والتنقل والرحلات والدهشة والتعلم؛ سوف أبدأ قريبًا بالاستعداد للانتقال إلى إفريقية إذ ستكون محطتي القادمة السودان، بوابة العرب على إفريقية وبوابة إفريقية على العالم العربي.

توليبه ونانغاليتو

31آيار–01حزيران2014

في الخامسة والنصف جاء الدليل، وهو صاحب المكان مع أخيه أيضًا، هم عائلة قاموا بتحويل أراضيهم إلى منطقة سياحية، رغم وجود مزارع لبعض الفواكه والخضروات فيها، لكن كثرة الطيور التي تسكنها مستثمرة تنوع الأشجار المثمرة طيريًّا (هذه كلمة نحتّها من ثراء العربية وتعني الأشجار ذات الأثمار الصالحة للطيور فقط). ثمن الدخول هو 25 دولارًا للشخص الواحد، وما بين 15 – 25 دولارًا أجرة الطريق، ولأنني بتّ ليلتي في أقرب قرية لمنطقتهم، كانت الأجرة 15 دولارًا، تشمل فطورًا بسيطًا. وهي مكلفة للغاية حسب أسعار الأكوادور، ولكن الأرض أرضهم وهم يتحكمون بالأسعار. وصلنا قبل السادسة بأكثر من ربع

ساعة. إنه موسم الأمطار والبيئة "غابات غيمية" أو "غابات سُحبٍ" أي حتى فصل الجفاف فيها ليس كما هو فصل الجفاف في مناطق أخرى.

كان أول طير شاهدناه هو ديك الصخْر الأندي (الأندوي) ويتميز بأن اللون الأحمر يأخذ مساحة كبيرة من جسده كما أن ظهره رمادي أقرب للأبيض وجناحيه سوداوان. طائر حالت كثافة الأشجار أن تسمح لبياض الفجر المنبعث من ثنايا شمس حاصرتها الغيوم والضباب والأمطار، فلم تفلح في نشر أنوثتها لتخترق عناق أغصان الغابات، فلم أتمكن من تصويره بما يقنعني فكانت أكثر من ستين لقطة لا أظنني سأبقي على لقطتين للذكرى وليس للنشر. وهذا الطائر يتفق المعنيون به وخبراء المنطقة أنه صعب التصوير.

انتقلنا إلى مكان آخر، وحاول دليلنا من خلال الصفير وما يحمل من طعام خاص بالطيور "دود"، إغراء الطائر ولكن الطائر الأخضر بقيَ بعيدًا عن متناول التصوير، أي ممكن مشاهدته وهو يتنقل بسرعة فائقة بين الأغصان ولكن لم يفلح أحدنا بتصويره، إذ تشابك الأغصان يُعَقِّد الْتِقاط صورة لا بأس بها. حين تحركنا إلى مكان قريب ورحنا نَصعد درجات (سلالمَ) متواضعة الصنع، جذوع الأشجار قُطّعَت بشكل جيد ووضعَتْ لتسهيل الصعود على السائحين. مئات السلالم صعدناها وممرًّا ضَيِّقًا فيه خطورة بعض الشيء، ذكرني بذلك الممر الرملي حين تسلقت غواغوا بيتشينتشا، إذ إن أي انزلاق يعني التدحرج نحو الهاوية – قاع الوادي.

شاهدنا أنواعًا عديدة من الطيور، وليس بعيدًا عنا كان حيوان التايرا، وهو مثل الثعلب شكلاً، ذيله مُتَبّل بالفرو، أسود اللون ورقبته بيضاء. غادرنا

يبحث عن مكان لا يُعكّر البشر صفوه. واصلنا الصعود، وبعد تصوير نوعين من الطيور، هبطنا إذ سيارات الأخَوين مع سيارة دليل سياحي يتبع مكتبًا ما, وهو يدفع مالاً لهم لقاء جلب زبائنه. وصلنا إلى مكان هو بيت ومطعم واستراحة تطلّ على فضاء أخضر متدرّج في كل شيء، وبينما يحضرون فطورنا قمتُ بالتقاط صور لأنواع من الطائر النطّاط الذي يصعب تصويره. ثم بعد الفطور رأيت مجموعة من الطيور زاهية ألوانها وبعد التصوير ومتعة مشاهدتها ومراقبتها. انتقلنا إلى مكان آخر، وشاهدنا طائرين كان تصوير الأول في غاية الصعوبة ولا أظنني نجحت بينما الثاني التقطت عدة صور له. وفي هذه الأثناء شاهدت نباتًا هو ذاته في نيوزلندا فقمت بتصويره، وهذا يعني أن هذا النبات يتحمل درجات حرارة مختلفة ومتباينة، لنعود للمكان نفسه الذي تناولنا فيه الفطور، حيث الطائر النطّاط وعدة أنواع من طيور مختلفة، نجحت في تصويرها والتمتع برؤيتها وبعد انتهاء الشحن في البطارية، جلستُ مع فنجان شاي أتأمل الطائر النطّاط بأنواعه العديدة، ولا يفصلني عنه سوى متر ونصفٍ أو أقلّ.

كان معنا رجل سبعيني من أستراليا، يعمل في أحدى الشركات، كان ممن سكن جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية لبعض الوقت، وحين جرى الحديث عن الأكوادور، تذكرت تلك المقولة التي تحثّ على مخالطة كبار السنّ ممن لهم تجارب في الحياة، ومما أتذكره من كلامه وبالأحرى مما ينطبق على المقولة السالفة، أن البنّ الأكوادوري يعدّ من أرقى أنواع البُنّ، لكنهم لا يجيدون تصنيعه فيصدروه لكولومبيا على سبيل المثال

ليتم تصنيعه هناك ويعود لهم قهوة مميزة يقبلون على شرائها. هنا تذكرت الكثير من منتجاتنا في العراق والمنطقة، حيث يتم تصديرها لتعود لنا مُصنّعة فندفع للشركات الأجنبية أضعاف ما جنيناه منهم.

أوصلنا الدليل إلى المكان نفسه الذي ركبنا صباحا منه؛ سألنا عن موقف حافلات نقل الركاب الذاهبة إلى كيتو، فأشاروا علينا بأن نسير سبعين مترًا للأمام، وبعد انتظار لم يطل كثيرًا، جاءت الحافلة وكأنها مرسلة من قوى مخفية، فمع وصولها بدأ المطر يهطل، وحين جلسنا في مقاعدنا نظرت للشارع وإذا بالمياه تملأه، فقد انهمر المطر بشدة عجيبة وسرعة استطيع القول إنها فائقة. في كيتو كان الأمر طبيعيًّا، وحين وصولي للبيت أعددت الشاي وأخذت حمامًا، وضعت ملابس الرحلة كلها في الغَسّالَةِ وفتحت الحاسوب لأدوّن رحلتي هذه، بينما صور الطيور حمر وخضر وصفر وزرق وملونة مازالت ترقص في ذاكرتي وتعزف لحنًا يزداد جمالاً مع الأيام، وهو مما سَأَتَوَكّأ عليه في شيخوختي أيضًا.

الطائر النّطّاط

كانت لدي رغبة جامحة أن أزور إحدى محميات الطائر النطاط للمرة الأخيرة قبل وداعي للأكوادور وأمريكا اللاتينية وانتقالي للسكن في الخرطوم. وعلى الرغم من تمكن الفايروس مني. أمس سنحت الفرصة وتحاملت على نفسي وذهبت. كان من المفروض أن لا يبعد المكان كثيرًا عن العاصمة كيتو. لكن وجدت نفسي في باباياتا وهي منطقة مليئة بالحمامات المعدنية، ولمياهها المليئة بأنواع كثيرة من المعادن قدرة على

التطبب ومراهم للجسد. وكانت زيارتي الثالثة لها يوم الجمعة ليلاً، وجدتني وأنا اتلمَّسُ ظلمة في قاع أحد الحمامات – الأحواض، بقدمي مما تسبَّبَ بارتطام عظم الرجل اليمنى فوق القدم مباشرة بأحد الصخور المسننة. ساعدتني المياه الساخنة على عدم الشعور بالألم. ولكن الألم نطّ مستبيحًا صلابتي بعد خروجي بفترة زمنية. وفي يوم السبت بعد الظهر نشط الفايروس في جسدي فأصبح حلم الوصول للبيت معجزة. لكن الأمور سارت على ما يرام بقدرة عجيبة، فلأول مرة في الأكوادور قبل وصول سيارة الأجرة بمئتي متر، وصلت الحافلة التي حين صعدتها أدهشني داخلها مقاعد ونظافة وراحة.

كانت رحلتي هذه المرة مختلفة، فلم أحمل معي آلامًا شديدة فوق قدمي اليمنى، بل حملت ذكريات ومشاهدات مختلفة. كانت إحدى رغباتي وأنا شخص تقودني رغباتي ففيها الدهشة والمعرفة والخبرة، أن أتجول في المنطقة المحيطة بالحمامات المعدنية ولمسافات بعيدة، وفعلاً حققت هذه الرغبة لأعود محملاً بدهشة جديدة؛ رأيت نباتات بعضها رأيته سابقًا ولكن ليس بهذه الكثرة حتى خُيّل لي أن هذه المنطقة هي الوطن الأم لهذه النباتات، لكنني أزحتُ الفكرة عن بالي بل طردتها شرّ طردة، لأن مقولة السكان الأصليين التي يزعمها بعض متطرفي غير العرب في العراق تثير غثياني، حتى راح يطلقها أناس لا يوجد بينهم مَن كان في وطني أو مدن وبلدات وطني قبل قرن أو قرنين أو ثلاثة.

في ساعات المشي تلك شاهدتُ آثار حيوانات رأيت صورها في كتب وملصقات المكاتب السياحية، تمعنت بالآثار، فاستطعتُ من فرز

الفروقات بين أقدام هذه الحيوانات، بل ومعرفة أيها أقدم وأيها أحدث. شاهدت طيرًا مميزًا حاولت الْتِقاطِ صور له ولكنه كان سريع التنقل بين الأغصان، فتبعته واضطررت للهبوط باتجاه المستنقعات المليئة بنباتات صغيرة ومتشابكة في عناق أبديّ توحي للناظرين أنها قطعة سجّاد خضراء حيكت بدقة متناهية. بعد محاولات كثيرة كدت انزلقُ نحو العمق – المستنقع مرارًا، تمكنتُ من إلتقاط صورة للطير، بطبيعة الحال التقطت أكثر من عشرين لقطة ولكن اللقطة التي أبحث عنها وتفرحني ولو بنسبة مقبولة حققتها بعد عناء، فواصلت الصعود ثم اقتربت من رفقاء الرحلة وكنّا ثلاثة، ونحن نمشي أغراني منظر هذه النباتات فقررت هذه المرة الصعود لتلة وإذا بقدمي تهبط حتى الركبة ما أن وضعتها على هذا النبات الذي يوحي لك وكأنه متماسك، فحذرتني التي استأنس بتحذيراتها أن هذه الأماكن قد تكون سكنًا لأفاعٍ أو زواحف، فكانت هذه الجملة وكأنها الريح التي جعلتها أقف مُحَذّرَتي خلال ثانيتين ربما؛ عندها فكرتُ بالأمر وقلت لا أظن أن أفاعٍ من الممكن أن توجد على ارتفاع يزيد على الثلاثة آلاف وخمسمئة متر، لكن الحق يقال لم أشعر بارتياح حين غاصت رجلي.

132 نوعًا من الطائر النطّاط

الأحد عدت لباباياتا عودة غير متوقعة، ولكن لمحمية الطائر النطّاط. والتقطت صورًا كثيرة لعلي أخرج بعشرين صورة جيدة أو حتى بأقل. وهذا الطائر عدد أنواعه في الأكوادور 132 نوعًا. أما عدد أنواع الطيور في

الأكوادور فهو 1650 نوعًا. تتوزع على تسعة أنظمة بيئية هي مجموع التعدد البيئي هنا. كنت محظوظًا لأن المحمية لا تختلف عن حديقة مساحتها عدة مئات من الأمتار فقط ومليئة بأنواع مختلفة من هذا الطائر المميز والذي سعدت أمس بتصوير أنواع عديدة منه على الرغم من آلام الفايروس الذي أرجو أن يغادرني قبل نهاية هذا الشهر. ففي هذه الأيام انتشر فايروس هنا، كنت ضحيته وهو لا يغادر الجسد إلاّ بعد أن يُكمل دورته، وجميع الأدوية لا تنفع معه. ميزته أنه كما الحُمّى (الفلاونزا) ينشط حينًا ويهدأ حينًا آخر.

أمس تمنيت أنني أملك كاميرة احترافية فهذا الطائر لا يمكن تصويره تصويرًا جيدًا إلا بكاميرة احترافية. لكنني لا أزعم أن جميع محاولاتي لم تؤد إلى اقتناص صورة مميزة ومجموعة صور مقبولة، في الوقت نفسه لو ركنتُ إلى ذائقتي فأنني لم أحظ بصورة تدهشني؛ ما فعلته هو التحامل على ألم رجلي اليمنى وآلام الفايروس ساعدني شغفي بالطبيعة أولاً وبهذا الطائر ثانيًا، رحت أتنقّل في هذه الحديقة الغناء التي لو قُدّر لي العيش فيها فلن أتركها إلاّ لو منحتُ فرصة العيش والسكن على شاطئ نهر الفرات في الجانب الأيسر من جسر المسَيَّب للذاهبين لبغداد، وعلى مبعدة عدة مئات من الأمتار، فذلك هو المكان الوحيد الذي لم يستطع أي مكان في العالم أن يُغَطّي عليه.

كان المكان يحوي استراحة، توفر الشاي بأنواعه الأسود والأخضر واليانسون والنعناع، فضلا عن القهوة وثلاثة أنواع من الحلويات (المُعجَّنات) ولمحب للشاي بأنواعه فالأمر له وقعه، ومع زخات المطر

التي تتوقف كثيرًا، كانت عدستي تحاول أن تقنصَ لقطات لكل نوع من أنواع الطائر النَّطّاط وكانت تسعة أنواع على الأرجح، أعني في المكان الذي مساحته عدة مئات من الأمتار كما أسلفت وربما لا تصل لألف متر، إذ السّكريات الخاصة بهذا الطائر وهي تشبه قارورة للأسفل منكسة على أناء متصل بها تحوي ثقوبًا يدخل الطائر النطّاط منقاره الطويل فيه، وهذا المنقار يمنحه القدرة على إدخاله في تويجات الأزهار كي يمتص رحيقها، ووضع السّكريات لجلب هذا الطائر للمكان على شرط وجود الأزهار بكثرة وأن يكون وسط غابة.

لا بدّ من ذكر حادثتين هما زيارتي الأولى في بداية انتقالي للأكوادور، مع شخص تعرفت عليه مهتمّ بالطيور بشكل كبير، فكانت منطقة لا تبعد كثيرًا عن العاصمة كيتو، وهي منطقة جبلية وفيها أول مرة شاهدت أعدادًا كثيرة من هذا الطائر وهي تتحلق حول السُّكَّرية، وخفقات أجنحتها من السرعة بحيث ثمة صعوبة في رؤيتها بوضوح، كانت كاميرتي قديمة وهذا طير يحتاج إلى كاميرات تملك دقة في السرعة والوضوح. لكنها رحلة عرفتني على هذا الطائر عن قرب، وكان ثمة مكان للجلوس تناولت فيه فطوري وفي النفس دهشتي الأولى تشاركني؛ هذه الرحلة كانت دافعًا للرحلة المشار إليها في أغلب كلامي أعلاه.

آخر رحلة كانت في الأول من حزيران 2014 أي قبل مغادرتي الأكوادور نهائيًّا بأقل من ثلاثة أسابيع، وكتبت عن هذه الرحلة (توليبه ونانَغاليتو) وكنت على مقربة من هذه الطيور أكثر من رحلتَيّ الآنِفَتَين. وأما ما يخص شقتي البسيطة فبين مدة وأخرى يزور حديقتي أحد الأنواع

منها وفي إحدى المرات كان ذا ذيل طويل أكثر من ضعف حجم جسمه توقّف لبرهة غير معتادة، لكني بدل جلب الكاميرا رحت أتأمله بدهشة عجيبة وكأني أراه أول مرة؛ وفيما يخص الدهشة فهي مما ذكرته، فأنا طفل الدهشة بلا منازع ولا أريد أن أكرر ما ذكرته في مواضع أخرى من كتاباتي عنها.

في إحدى المرات وبينما أنا في شقتي أقرأ وأكتب كالمعتاد، وإذا بطائر نَطّاط يدخل شقتي ولا يعرف كيف يخرج، وراح يصطدم بزجاج نافذتي الكبيرة والتي تمنحني منظرًا يطلّ على كيتو وفي الوقت نفسه أرى جبال غواغْوا بيتشينتشا، التي غامرت يومًا وتسلقتها وقضيت ليلة كدتُ أفقد حياتي فيها؛ اضطررت لمسكه ولم يك ذلك صعبًا، تأملته للحظات وأطلقته لحريته الباذخة.

B A S I M   F U R A T

ينفرد باسم فرات عن كتّاب أدب الرحلات العرب أو العراقيين على قلتهم وحتى الأجانب الآخرين بأنه كرس سنوات طويلة من حياة المنفى في الترحال عبر قارات وبلدان لم تُغر منفيي العراق ولا البلدان المضطهدة الأخرى بالوصول إليها أو التمتع بمباذخها الغامضة التي تمنحها لأديب عالي الحساسية من طراز باسم فرات، عوالم بلدان لم يسلط عليها الضوء في أدب الرحلات والاستكشافات من قبل، تصدرت عنوانات الصحف بوصفها مستعمرات وبلدان دكتاتورية غاشمة ومستوطن لمافيات المخدرات، هذه هي الصورة التي سوقها الإعلام وكتاب السياسة عن سحر وفتنة بلدان أمريكا الجنوبية؛ بلدان الحلم البوليفاري الذي أغرى باسم فرات باستكشاف وجوه أخرى وصفحات مطوية غير مألوفة، ونذر سنوات طويلة قضاها من عمره باحثًا في مجاهل أماكن وبلدان لا تغري السائح الباحث عن المتع الجاهزة أو الملذات العابرة، بل هو جهدٌ وسعى في كل رحلاته لاقتناص معلومة تاريخية أو مغامرة غامضة تحت غابات أفريقية أو في أقاصي أمريكا الجنوبية يغني بهما كتابه المتسلسل في أدب الرحلات.

(لجنة الإشراف على جائزة الأديب والرحالة ناجي جواد الساعاتي لأدب الرحلات- بغداد)



الحضارة للنشر